

RAMZI

AL-ISTI'MAR AL-FARANSI

2274
13475
1349

al-Isti'mār al-Faransī

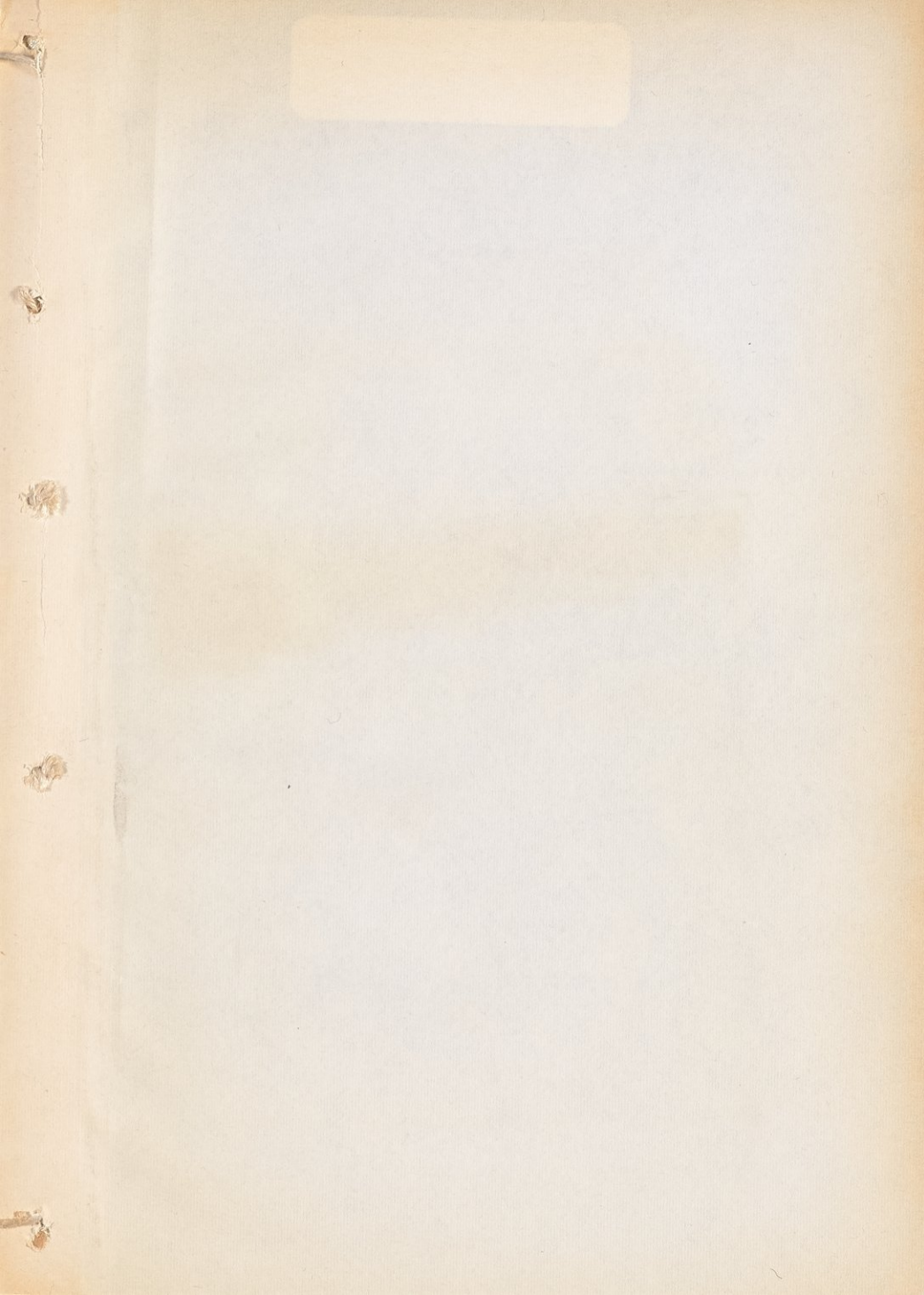
DATE	ISSUED TO
AUG 5 1965	Bindery

[illegible]

Princeton University Library



32101 074496066



لجنة البكّان العكّري

الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا

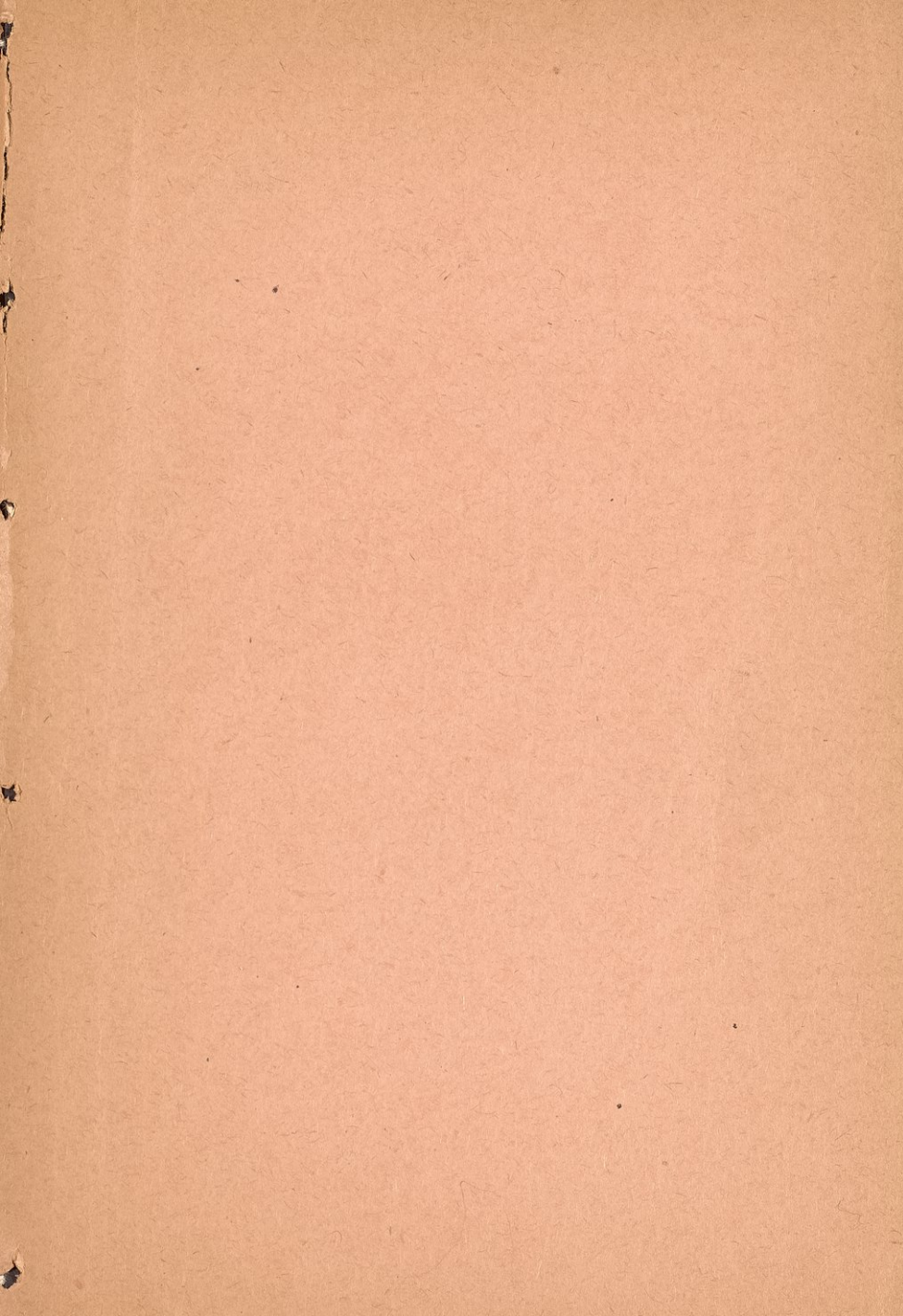
تأليف

أحمد رمزي

القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي
بسوريا ولبنان من ١٩٣٩ — ١٩٤٤

حقوق الطبع للمؤلف

الطبعة النفوذية
٦ سكة الشاوي بالحمية الجديدة



Ramzi, Ahmad

أحمد الرمزي
1130. Al-Ramzi

لجنة البَيَّانِ العَرَبِيِّ

al-Istimār

الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا

تأليف

أحمد رمزي

القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي
بـسوريا ولبنان من ١٩٣٩ — ١٩٤٤

حقوق الطبع للمؤلف

المطبعة النفوسية
٦، كية الشاوي بالجامعة الأردنية

(ج)

مقدمة الكتاب

للإستاذ محمد توميد السامح

اقترح المؤلف الفاضل المعروف بشقافته السامية ، وأدبه البليغ وآثاره القلمية النفيسة ، أن تكتب هذه الكلمة . وإنه ليشر فيها أن يضعها بجانب مقدمته تكريماً للصدقة .

أما الكتاب فهدية إلى من شاء أن يعمل في سبيل بلاده الشرقية « بإرادة وبصيرة وعلم وحزم » . وهو « من وحي الحوادث التي توالى على الدنيا ، ووحى « الاطلاع » على المصادر التاريخية والسياسية والديبلوماسية التي تزيل الأوهام وتصحيح الأفهام . لم يوضع على برنامج أعد له بدءاً ، بل جمع أبحاثاً سبق نشرها أو نشر بعضها . ولكن وحي الحوادث والاطلاع لم يمنع أن يجيء فحوى الكتاب وروحه ، والآراء الذاتية الجديدة الواردة فيه ، ثمرة يانعة من شعور المؤلف وقريحته مهداة إلى القلوب والعقول؛ ولم يمنع أن تكون هذه الآراء سديدة — وإن اعتذر صاحبها من

2274
3475
349

(د)

أى خطأ محتمل بأنه إنسان يخطئ ويصيب متواضعاً باعتذاره
تواضع الخبير المستنير، ولا أن يدل سياق فصول الكتاب وأقسامه
على أن الذى رتبته عقل منظم عرف فن التأليف . وهو صنيع
جدى ينتفع به من حضه الضمير على توخى المعرفة من كثرة المشتغلين
فى شرقنا بالسياسة والدبلوماسية ، الرسميين وغير الرسميين .

والحق أننا ، نحن معاشر أهل الشرق الأدنى ، على ضلال سادرين
فى السعى لمطامعنا الذاتية ، وفى غرورنا وأوهامنا السياسية ،
وأساليب عيشتنا وما نسميه كفاحنا ؛ وصاحبنا على حق حيث يقول :
« ستفرض على شعوب الأرض أنواع جديدة من الحياة وضروبها
وسيلقن الزعماء والقادة أشياء يتفوهون بها فيقولون أنها من عند
أنفسهم » ؛ وعلى حق أيضاً إن هو قصد إراحة ضميره بنشر أبحاث
لعلها تساعد فى إيقاظنا وهدينا الصراط المستقيم .

فان كثيراً من حوادث بلادنا وأحوالها ، قديماً وحديثاً ،
لا تبيّن حقائقه كلها إلا على ضوء كاف من واقع المنافسات
الاستعمارية وتدخل بعض الدول الكبيرة فى شؤوننا ، وتغلغل
النفوذ الأجنبي فى مصالحنا ؛ ونحن لا نتمكن من خدمتها بحكمة وليس
يتاح لنا الدفاع عنها ، فى حدود المستطاع ، إلا بقدر ما نعرف من

مصالح تلك الدول الحيوية وغير الحيوية ومن مصالح جيراننا ، وبخاصة في زماننا هذا الذي أصبح فيه استقلال كل دولة صغيرة أو كبيرة شيئاً نسبياً ، وتصرفها في سياساتها متأثراً من تصرف غيرها في سياساته .

وتلك حقائق لا تؤخذ من الكتب المدرسية والجامعية ، ولا من الصحف والبرقيات والدعايات — وإن جاء في أقوالها أحيانا تلميح يدرك مغزاه من يستطيع فهم الكلام على خلاف مقتضى الظاهر منه ، بل هي حقائق اما مظاهرها مثل هذا الكتاب الصادر عن تلك الثقافة النظرية العملية ، العديدة الألوان ، الوافية ، التي تهدي الشعور ويعتدل بها حكم العقل لرسوخ أصولها السليمة في الوعي الباطن فلا يغتر صاحبها بالظواهر ، وإلا فان البصيرة يكثر أن يعتريها ، أمام مناظر التاريخ أو الأحداث السياسية ، ما يشبه أوهام البصر فتقدر أن الجوهرى في هذه المناظر أو الأحداث هو أبرز ما يلفت النظر منها ، ولا تدرك أن الخطورة انما هي للأمور القليلة الظهور ، المتسقة سيرتها ، الدائمة العامة .

فمن لا يتتبع في التاريخ ، مثلاً ، سوى أعمال كبار مثليه يرى فيه مناظر روائية جميلة لها وقع فني رائع ؛ فان هو أدرك أن الأمور

يُتصل بعضها ببعض ويرتبط بدا له عندئذ أن خلف المظاهر السطحية الروائية أمورا هي أقل حركة وليعا وشأنا للناظر العادى الساذج ،
ولسكنها أجدر بلفت نظر المستطلع الذى يتوخى أن يعرف سر
الأشياء ومصائر الأمور .

ومثل هذا المستطلع البصير يتضح له أن أقوى الأفراد من
البشر حققوا لأنفسهم بالتسلط على الأضعفين ما لم يكن لذواتهم
عنه غناء من أحوال العيشة الراضية ؛ ويتبين له أن طفيلية الأعزّة
هى الغرض الظاهر أو الخفى ، المباشر أو غير المباشر ، من أكثر
النظم التى تشكّلت على توالى القرون وكوّنت إطار المدنية ، حتى
بعض ما يتضمّن كوّنته ؛ ويستيقن أن الكفاح لا ينقطع : كفاح
أفراد فى سبيل السلطة العليا ، وكفاح طبقات للسيادة فى شعب ،
وكفاح شعوب لحيازة الأرض وحاصلاتها ؛ فمن جهة ، يجمد الحروب
والمعاهدات الدولية ، والثورات والمقاومات ، والاختلافات الحزبية
والأزمات والتراضى ، وكل أولئك أمور تدل على جهد الأنانية
الطفيلية فى أفراد وجماعات غرضهم استغلال ينيلهم أكثر ما يمكن
من المنافع ؛ ويجمد من الجهة الأخرى مقاومة الفرائس التى تدافع
عن نفسها وما فتئت تغيير وجه الأنسانية ؛ وليس بد للضعيف من

المصانعة تحقيقاً لأغراضه ، في حدود المستطاع ، على التدرج حتى لا تقعده القوى المختلفة التي لا قبل له بها عن هذه الأغراض ، ولا وسيلة أمامه للتفادي من بعض الأضرار بغير حكمة ومصانعة ليست تحول دون التقدم بتؤدة نحو مثله الأعلى .

من أجل كل ما تقدم بيانه كان من أصول التأليف المفيد في « الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية » ، أن يبدأ المؤلف بإيقاف كل قارئ على أصل الاستعمار الحديث واطواره ، وتوسعه الجارف ومشاكله وأثر هذا التوسع ؛ وأن يفهم العامة من المتعلمين ، والكثرة من خاصتهم معهم ، أن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح في سبيل تحرير الشعوب « يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره ، وأهميته ومداه ، لكي نستخلص القواعد الأولية التي تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة ، وهي التي تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكي يركز على أساس منطقي معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يحيش بصدور الشعوب من آمال ، وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائياً » . فإذا هم وقفوا على تلك الأمور كان من أنفع ما يتضح لهم أن السيطرة الأوروبية جاءت بنتيجتين ، إحداهما

(ح)

إيجابية والأخرى سلبية ، و « أن الأثر السلبي كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الآسيوية والأفريقية ، وفقدان حريتها وتصفية الطبقات الحاكمة فيها ؛ فلم يعد فيها رجال من الصنف الأول ، وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها » ، فلا بد لها من العمل على إيجاد أمثالهم .

وليس شك في أن هذا التمهيد يسهل للقارئ تفهيم أقسام الكتاب العظيم على صغر حجمه وما احتوت من حقائق تاريخية ، شبه فلسفية ، في فرنسا ومستعمراتها وفي أثر المنافسة والعوامل الدولية في استعمارها ؛ وحقائق في الاتحاد السوفيتي والاتحاد الفرنسي والاتحاد الهندي ، وهذه « ثلاث هيئات اتحادية يواجهها العالم الإسلامي في يقظته وكفاحه ضد الاستعمار الانجلوسكسوني والأوروبي والصهيوني » ، ولو شاء المؤلف أن يفيض في بيان تلك الحقائق لاستطاع شرحها في مجلد ضخم ، وليته يشاء .

وقد أتاحت نظرته العامة الثاقبة في هذا الموضوع العديد الجوانب العويص أن تتجه له آراء ذاتية جديدة : حيث إبان المتناقضات في أنظمة الاتحادات السوفيتي والفرنسي والهندي ، مع اظهار الناحية التعسفية في كل منها ؛ وحيث قارن بين أساليب السوفيت

الاستعمارية وما تنوى فرنسة إنشائه من اتحاد بين مستعمراتها ؛
وحيث شرح السياسة الدينية التي تجريها الدولة الفرنسية اللادينية في
الأقطار الاسلامية الواقعة تحت حكمها .

الخلاصة أن هذا المجموع من الأبحاث كتاب جيّد ، يُعتمد
عليه في فهم موضوع الاستعمار وسياساته الدولية ؛ ويحمل بمحب
الاطلاع والاستنارة أن يثق به ، ويقرأه بعناية وتفكر وإمعان ،
ليفهم ما في سطورهِ وما بين السطور ، أى ليدرك ما لم يقل مؤلفه
مما قال صراحة وتلميحا ، وعرضاً موجزاً لحقائق الواقع في الشعوب
والدول والسياسات والمنافسات الاستعمارية ، تلك الحقائق التي
يجب الاهتمام بمنطقها . فهو كتاب ينفع زعماءنا وساستنا ، أخلصوا
أو لم يخلصوا ، وينفع كل قارئ من الشرق العربي يريد ألاّ تضلّه
البرقيات والسفسطات السياسية والدعايات .

محمد توفيق

القاهرة في ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٤٨

الأهداء

إلى ذلك الرعيل من الرجال الذين قابلتهم فأوحت إلى
أعمالهم ونظراتهم وأقوالهم :

بالإيمان والثبات والتضحية .

إلى الطليعة الأولى من شباب الأمم المظلومة التي بدأت
تعمل بارادة وبصيرة وعلم وحزم والتي غرست في نفسها
رغبة التغلب على المصاعب وذريزة مواجهة الأخطار .

إلى الذين يؤمنون بحق الشعوب المظلومة في الحياة ،
من أبناء الشرق والغرب ومن أبناء فرنسا نفسها .

أقدم هذا الكتاب ؟

المؤلف

مقدمة المؤلف

الى القارىء الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — الحمد لله والصلاة والسلام على محمد المبعوث لهداية العالم الذى جاء بكلمة الحق وفصل الخطاب فجهر بالقول ثم قرن القول بالعمل حين قاد الكتائب وباشر القتال وقام بالثورة الكبرى يومئذ حقت كلمة الله . وتحررت ارادة الانسان وتحطمت الاصنام الزائفة بعد عشرة قرون من الطغيان والجبروت على الشرق واهله .

٢ — وبعد فهذا كتاب ليس لي الفضل في إخراجه اذ جاء كله من وحي الحوادث التي توالى على الدنيا فهو مجموعة اجاث وراء سبق لي نشرها او نشر بعضها في مجلة الرسالة الغراء . ولذلك لم اضع له برنامجا او خطة منطقية ترمى الى هدف معين

٣ — ولا يظن القارىء اني استجمعت كل المراجع التي وردت في نهاية الكتاب وتصفحتها عند كتابته وانما هي مجموعة من الكتب التي قرأتها منذ سنوات فأثرت في نظرتي لبعض الاشياء . لهذا فاننا

مدین لها ولا اذکرها على سبیل التفاخر وانما على سبیل ارجاع الحق لاربابه .

٤ - ولقد تبدو بعض الاراء جديدة أو شخصية فهذه جاءت تتيحة دراسة بدأت منذ سنوات وبعد تفكير طويل لازمني مدة من الزمن ولهذا أراني مسئولاً امام القارىء عن هذه الناحية واقول اننى فكرت كإنسان فإن خاتنى التوفيق واخطأت فليس ذلك الا لانى انسان ومن طبيعة البشر أن يوفقوا أحياناً وان يخطئوا أحياناً ٥- تسير الأمور بخطوات سريعة على غير ما نبغى

فعند كتابة هذا الكلام كننا نواجه القوى المتجمعة لنزع اوطاننا من ايدينا .

اما اليوم فإننا نواجه القوى الجامعة التى تحاول ان تفرض الفناء والابادة علينا

فهل تغيرت اساليبنا ؟

وهل استيقظ النائم ؟

وماذا سيأتى به الغد ؟

هذه اسئلة يجيب عليها المستقبل

٦ - ستتغير الدنيا بعد عشر سنوات وستفرض على شعوب الارض أنواع جديدة من الحياة وضروبها وسيلقن الزعماء والقادة

أشياء يتفوهون بها فيقولون انها من عند أنفسهم ولكنى مطمئن الى حقيقة ثابتة : هي

سيري قارىء هذه الابحاث اننى لم احاول تضليله بتغيير الحقائق او التجنى على الحق وقد يأتى ناقد فيقول اننى كنت مخلصا مع نفسى اولاً ثم مع القارىء فهذه كلمة حق اريد بها الدفاع عن حق .

والصلاة عليكم ورحمة الله وبركاته

جيزة القسطنطينية في شارع الاهرام / ٤٠

١٢ شوال سنة ١٣٦١

١٧ اغسطس ١٩٤٨

احمد رمزي

مراقب

مصلحة التشريع التجارى والمالكية الصناعية

بوزارة التجارة والصناعة

بحث في الاستعمار الاوروبى وسيطرته على العالم

١ -- مشا كل العالم الجديد

حينما ندرس حالة العالم بعد الحرب الأخيرة يتبين لنا بوضوح أن تاريخ الإنسانية لم يعرف عهداً مملوءاً بالمشاكل والمتناقضات والانقلابات المتتالية والتغيرات السريعة التي تنفرد بخروجها عن كل قاعدة ومخالفتها للألوف والمعهود مثل الذى نراه أمام أعيننا اليوم.

٢ -- صعوبة الدرس

هل بوسعنا أن نستخلص بعض القواعد العامة أو الاتجاهات أو نضبط شيئاً من العلاقات التي تربط بين الأسباب بعضها مع بعض أو بين الأسباب والظواهر ، أو نستبق الحوادث فنكشف عن نتائجها ، أو نتنبأ بما قد تأتى به الأيام المقبلة .

٣ -- أثر القرن الماضى :

يصعب استخلاص شيء من ذلك الآن نظراً لتتابع الحوادث ،

وتطورها السريع إلا إذا حرصنا على بحث الظروف التي مرت
بالعالم بين حريين . وكشفنا عن الدروس التي ألقاها علينا تاريخ
القرن الماضي بأكمله ، فقد تساعدنا على إلقاء نظرة تمهد لنا الطرق
وتسهل السبل لتكوين فكرة تقرب من الصواب ، تهدينا إلى تحديد
بعض النتائج التي حصلت عليها الإنسانية بعد خروجها من حريين عالميتين
نقرر ذلك لأن الفترة التي تقع بين ١٨١٥ — ١٩١٤ ، أي بين
مؤتمر فينا ، وإعلان الحرب العظمى الأولى ، كانت مملوءة بالحوادث
الكبرى فهي قد بدأت بتأكيد مبدأ القوميات والمناداة بتحرير
الشعوب واستقلالها في أوروبا ، ثم خضعت لفكرة حفظ التوازن
بين الدول الأوربية الكبرى ثم كانت فترة الثورة التي نقلت أوروبا
من عهد الاقطاع وبقايا القرون الوسطى إلى عهد الصناعة الآلية
وما يلزمها من تنازع الطبقات وتضخم المدن الكبرى ونمو الرأسمالية
وبروزها كعامل أساسي انشائي في حياة الشعوب الأوربية .
٤ — التوسع الاستعماري الجارف :

وكانت هذه الفترة كل هذا ولكن أكبر مظاهرها هو أنها كانت
عصر التوسع الاستعماري الجارف فما معنى هذا ؟
أن الذي يبدو لنا في عام ١٩١٤ ، وظاهر املوسا هو أن الدول التي
توسعت في أملاكها وازدادت علاقاتها بالأمم والمغلوبة والمحكومة
على أمرها ، قد أخذت تتحول من دول أوربية إلى دول ذات صبغة عالمية

ويهمنا أن نعرف كيف تمّ هذا التحول، وكيف دخلت الدول الكبرى ميدان الاستعمار فأصبحت غير قادرة على التراجع من ساحته ، والانكماش على نفسها بعد أن ذاقت طعم حلاوته .

كل هذا يمكن تحديده ودرسه ؛ إذا عرفنا شيئاً عن اتجاهات هذا القرن الماضى والتطورات التى تمت فى أثنائه .

٥ — الاستعمار قديم فى مساوائه :

فمن المسلم به أن بعض الدول كانت تملك المستعمرات ؛ وكانت تعرف طريقة استغلال الأراضى والشعوب — قبل العهد الذى أفردنا التكلم عنه — ولكن نشاطها كان محدوداً وفى دائرة ضيقة ولم يكن اتصال هذه الدول بمستعمراتها أو اعتمادها عليها بالقدر الذى وصلت إليه فى الفترة الأخيرة بل كان الاستعمار يجتاز أدوار المحاولات البدائية ، ويتعثّر فى تجاربه التمهيدية التى تحمل روح المغامرة الأولى .

٦ — عصر السيطرة :

أما فى الفترة التى أشرنا إليها فقد وصل الاستعمار إلى أوجه الأکبر حتى أن البشرية لم تعرف فى كل أدوار تطورها وكفاحها وفى كل عصورها السالفة بغير استثناء زمناً خضعت فيه شعوب الأرض المختلفة بمدنياتها وتقاليدها بل من نواحي انتاجها الحكم بعده .

أوروبا مثل العهد الذي جاء بين ١٨١٥ — ١٩١٤

٧ — تسابق وتنافس وتزاحم :

ففي هذه اللقطة من الزمن اشتد التنافس والتسابق والتزاحم بين دول أوروبا الكبيرة والصغيرة القديمة منها والناشئة على احتلال الاراضى وتقسيم القارات لدرجة أن وصل إلى المناطق المتجمدة والصحارى القاحلة فأصبح الجليد والصخر والرمال وجزائر البحار ميدانا لكل هذا ومحلا للنزاع والاطماع ورفع الأعلام وتقسيم مناطق النفوذ بالمعاهدات والاتفاقات .

٨ — ما هو مركز الشعوب والحكومة :

فكل بحث أو دراسة لشئون العالم وكل كفاح فى سبيل تحرير الشعوب وإنقاذها من براثن الاستعمار ومشاكله يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره وأهميته ومداه لكي نستخلص القواعد الأولية التى تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة وهى التى تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوروبا لكي يركز على أساس منطق معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يحيش بصدور الشعوب من آمال وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائيا منها .

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو التساؤل عن أثر هذا التحول

أو التطور العالمى الذى كان من نتيجته أن انقسمت الإنسانية إلى فريقين

- ١ — أمم قوية سائدة مستعمرة
- ٢ — أمم ضعيفة خاضعة : لا تجد رغم جهودها الفرض للملاحقة الأولى .

٩ — أثر السيطرة الأوربية :

فلنكن هنا صريحين أمام الحقائق وإن كانت مرة علينا .
كان من أثر هذه السيطرة أن تحطمت المدينيات القديمة التى كانت سائدة فى قارات العالم بل اندثرت وتلاشت بقاياها وآثارها وأنظمتها أمام مدنية الأوربيين وتفوقهم المادى والعسكرى .
١٠ — نتائجها السلبية والإيجابية :

ان الأثر السلبي كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الآسيوية والافريقية وفقدان حريتها وتصفيه الطبقات الحاكمة فيها فلم يعد فيها رجال من الصف الأول وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها أما الأثر الإيجابى فهو أن السيطرة الأوربية اقترنت بزيادة السكان فى المستعمرات بل أصبحت هذه الزيادة مظهرا من مظاهر الإستعمار الأوروبى ويرجع هذا إلى التقدم المادى وحالة الاستقرار التى فرضتها الدول الحاكمة حتى لقد لاحظ الاجتماعيون أن هذه الزيادة فى سكان المعمورة لم تعرفها الإنسانية من قبل فى أى عصر من عصورها السالفة^(١) .

(١) لا يزال الجزء الغربى من آسيا ووسطها ناقصا فى السكان : فلم تستعد تركيا وإيران والقوقاز وارضى التركستان ما كانت عليه من العمران فى السابق

ثم كان من نتيجة هذه السيطرة وما تبعها من تنافس وتغلغل في جهات مختلفة ان ارتبطت أمم العالم بطرق مواصلات سهلة كانت أولى آثارها ان خضعت الشعوب خضوعاً أعنى أمام القوة إذ فشلت كل محاولة للثورات واستعمال القوة وأصبحت علاقات الشعوب مع القوة الغاصبة هي علاقة التابع للمتبع (١).

فهذه ناحية سلبية تقابلها أخرى إيجابية تتخلص في أن هذه الأمم التي جهلت بعضها حيناً والتي تنافرت في الأعصر السالفة وجدت نفسها تحت الاستعمار الأوروبي وما أدخله من سهولة الانتقال في مركز يسمح لها بالتعارف واستعادة العلاقات والروابط التي كانت قائمة بينها يوماً ما ثم انقطعت .

١١ — العلم والاقتصاد سلاح المستعمر :

استقرت سيادة الأوربيين وسيطرتهم على الأرض بتفوقهم العسكري ومقدرتهم على استعمال الأسلحة الحديثة وأمنوا أن تقوم الشعوب عليهم حيناً أخذوا بأنظمة تجنيد المرتزقة وكتائب الشعوب الملونة فألقى عبء القتال واستتباب الأمن عليها ونزلت تكاليف الحكم والإدارة إلى أدنى ما يمكن أن تصل إليه فاتقل الإستعمار من ميدان الفتح واستعمال العنف إلى طور جديد هو الاستعانة بالعلم والاقتصاد على تنظيم استغلال المستعمرات وثرواتها المعدنية والزراعية على أسس جديدة

(١) يخيل للكثيرين ان عهد الاستعمار قد انتهى ، اما نحن فنرى ان ابعاد البلاد الآسيوية او الأفريقية قد أصبحت تحت رحمة المستعمرين في أى وقت شاؤوا قذفوها بقنابلهم .

أى اتجهت الحكومات وهيئاتها الاستعمارية إلى تحقيق فكرة سيطرة الإنسان على مرافق الحياة وإخضاع الطبيعة لسلطانته وأرادته بكل ما فى العلم من قوة ثائرة Révolutionnaire وما فى الاقتصاد من قوة منتجة وأخذت هذه الاتجاهات تتطور بسرعة فائقة حتى أخذت مظهر الادفاع للسير بهذه النهضة نحو تحقيق أهداف عالمية .

١٢ — الدراسات العلمية فى خدمة الدول المستعمرة لحكم الشعوب :

أما من الناحية السياسية فقد أخرج القرن الماضى لدى الدول التى تقدم لديها الوعى الاستعمارى نشاطاً أشد خطراً من الأسلحة وأعمق أثرأ هو الدراسات العلمية والنفسية وتطبيقها على إدارة المستعمرات وفى حكم الشعوب المغلوبة على أمرها^(١).

لقد أصبحت هذه الدراسات أقوى دعائم سيطرة الأوربيين ودليل تفوقهم ومقدرتهم على قيادة الشعوب التى يحكمونها وتولى مقاليد زمامها فكانت النتائج التى وصلوا إليها كمنجائحهم أمام إحدى مظاهر الطبيعة التى ألانواقنتاتها وأخضعوها لمشيتهم فى عالم الجماد والحيوان فطبقوها تباعاً على فريق من بنى الإنسان الذين أوقعتهم الأقدار تحت أحكامهم .

١٣ — النظام الاقتصادى فى القرن الماضى . « الباب المفتوح »

ومع توالى نجاح الاوربين فى عملهم أصبحت مشكلة المستعمرات كبرى

(١) بفهم من هذا ان للاستعمار فلسفة : واول من هم فى حاجة لدروسها زعماء . وقادة الامم الشرقية حتى لا يلزمهم الفشل وتلاحقهم الاخطاء .

مشاكل العالم المتمددين لأنها وليدة النظام الاقتصادي الذي ساد الدنيا بين حربين وكان من أثره تلك الأزمات التي عايتها الإنسانية في العالم الرأسمالي بعد أن أصبح مكوناً من مجموعات كبرى ذات صبغة عالمية يسودها التنافس أما في القرن الماضي فقد كان النظام السائد في عالم الاقتصاد هو نظام الباب المفتوح وهو يتلخص في أمرين حرية البحار وحرية التجارة ثم التكافؤ في المعاملة أي محاربة الاحتكار والمعاملة الممتازة وفتح الأبواب المغلقة وتكسير الأسوار الفولاذية التي تفرضها بعض البلاد وتمسك بدرجة من الاستكفاء وبما لديها.

فالبوارج الحرية من مختلف الجنسيات الأوروبية التي قذفت بقنابلها موانئ الصين واليابان في القرن الماضي كانت في عدوانها تفرع الأبواب المغلقة وتفرض سياسة الباب المفتوح — وفي مصر كان تساهل الدبلوماسية الأوروبية لبقاء الاحتلال البريطاني يلازمه دائماً اشتراط العمل بسياسة الباب المفتوح وأخذ الضمانات على الإنجليز ألا يكون لهم مركز تجاري ممتاز أو أكثر رعاية في الشؤون الاقتصادية والمالية عن غيرهم ولذلك بقيت حرية الحكومة المصرية في فرض الضرائب الجمركية وزيادتها مقيدة كما كانت في السابق أيام السيادة العثمانية رغم سيطرة البريطانيين المباشرة وتدخلهم بغير حق بوجود جيش الاحتلال (١).

(١) ستعظم هيئة الأمم المتحدة . بسياسة الباب المفتوح الاسوار الفولاذية والكتل الاستعمارية لفرنسا وهولندا والبرتغال : خدومه للاستعمار الانجلوسكسوني.

وكانت سياسة الباب المفتوح إحدى دعائم القوة البريطانية الاستعمارية بل استغلتها بريطانيا استغلالاً شائناً كلما أرادت التدخل في الشؤون الداخلية للأمم أو إيجاد مبرر لسياستها معتمدة على أنها تعمل بوحى الرغبة الدولية العامة لاحترام مبادئ وقواعد وضعت لصالح المجموع الدولي الأوروبي.

١٤ - النظام الاستعماري يحتم الخروج عن هذه القاعدة :

وحينما تقدمت الدول الأوروبية في طرق استغلال أراضيها بالمستعمرات وكثرت مواردها وزادت ثرواتها زيادة هائلة ، تطورت علاقاتها مع ممتلكاتها وسارت اشواطاً نحو الوحدة الاقتصادية أو ما يشبه الاتحاد والتكتل بين الدولة الأوروبية وما يخضع لها سياسياً من الأقطار فيما وراء البحار .

وأدى هذا التطور إلى أن أخذت كل وحدة تطمع في الاستكفاء بنفسها والاستقلال بمواردها .

وظهر هذا الاتجاه في ناحيتين .

الأولى - أن الميزان التجاري الذى كان يعتمد على حرية التجارة خضع لمقدرة الدول الاستعمارية واستعدادها لتصرف الفائض من منتجاتها الصناعية فى المستعمرات التى تملكها .

الثانية - أن المواد الأولية التى كانت من المبدأ تحت متناول يد

بقية العالم عملاً بمبدأ حرية التجارة أخذت تنحصر رويداً رويداً في الأقاليم الأفريقية والإسيوية وغيرها بيد رجال وشركات الدولة الحاكمة فأصبحت بعد مرور سنوات قليلة محتكرة بيدها وبعيدة عن ومتناول الأسواق الحرة.

ولما كان كوكبنا الأرضى محدود المساحة ولم تبق منه بقعة خالية لم يفرغ عليها علم أحمر أو أزرق أو أخضر ولم يبق شعب من الشعوب إلا وأوقعه الحظ السيئ تحت سيطرة أو حماية أو وصاية جمعت الدول الاستعمارية ثروات طائلة من احتكارها لهذه المواد وكان من الطبيعي أن تتلاقى القوى الاستعمارية على حدود مناطق لا تتعداها وإلا تصادمت مع قوة لا تقل شأنًا عنها.

١٥ — التنافس في دائرة التوازن بين القوى :

انتهى التوازن الأوروبي إلى توازن عالمى مسلح وأدى التوسع الاستعماري إلى تنافس سلمى ظهرت بوادره ابتداء من القرن العشرين فمشكلة فاشودة المعروفة تمثل القمة في التنافس الفرنسي البريطاني على اقتسام مناطق أفريقية ثم تلاقت الكتلتان الاستعماريتان في اتفاق سنة ١٩٠٤ المشؤم الذي أطلق أيدي فرنسا في شؤون سلطنة مراکش واعترف ببركز بريطانيا في مصر وأوجد الحلول للمشاكل الاستعمارية بين الكتلتين..

ويعتبر اتفاق ١٩٠٧ بين بريطانيا والروسيا حلقة أكملت الاتفاق الأول إذ أنه جعل من إيران مناطق نفوذ وحدد الموقف ازاء أفغانستان وأقاليم أخرى في آسيا وسيد الباب على هذا التلاحق والتنافس أو قل ابعد الاحتكاك بين قوتين استعماريتين تحشيان الحرب والتصادم فيما بينهما .

ومع قيام مثل هذه المعاهدات والاتفاقات فإن التنافس بقي قائما بين هؤلاء المستعمرين وغيرهم ووصل إلى مداه قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وظهرت بوادر التسابق على اغتصاب المواقع ذات الالهمية الاستراتيجية واحتلالها وتحصينها خصوصا التي تسيطر على طرق الملاحة والمواصلات الدولية استعدادا للحرب التي كانت لاشك آتية .

١٦— أوروبا تخوض الحرب العالمية الأولى وهي في عنفوان قوتها .

كانت أوروبا في عنفوان قوتها ومجدها وسلطانها وقد ورثت الأرض ومن عليها حينما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت حربا قاسية ضروسا خسرت فيها الدول الاوربية زهرة شبابها ولما وضعت الحرب أوزارها كانت أوروبا كمركب شرعى كبير يخرج من وسط أعصار هائل .

وكان من مظاهر هذه الحرب أن شعوب المستعمرات شاركت

الامم الاوروبية القتال فيها بأموالها ورجالها والغريب أن نتيجة هذه المساعدة كانت وخيمة على هذه الشعوب إذ بمقدار عظيم الضحايا التي بذلت والخدمات التي ادتها المستعمرات ، زادت أطماع الدولة الحاكمة في التمسك بها والتحكم فيها .

١٧ — متاعب أوروبا :

وظهر جليا بعد الحرب أن أوروبا تحطم فيها أكثر ما خلفته القرون الماضية من انظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية .
فلو قدر لمترنخ الوزير النمساوى أو لغيره من أساطين وبنابر الرجعية الذين خيّل إليهم أن الاقدار تسير طوع ارادتهم ، أن يروا بقايا الانقراض والخرائب التي تركتها الحرب وذلك الفراغ الهائل في نفسية الشعوب ومثلها العليا وكيف كانت هذه الامم قاب قوسين أو أدنى من الدمار والانحلال إذن ليصعب عليهم أن يجدوا أثرا من الانظمة التي فرضوها على هذه الشعوب في مستهل القرن الماضى .
لقد تحررت أوروبا من آثار القرن التاسع عشر وتقاليده ولكنها لم تنهأ بحالاتها الجديدة إذ دخلت عصر اشعرت فيه لأول مرة بالفقر المادى والمعنوى وواجهت نوعا من المتاعب والمشاكل لم تألفه في ماضيها فهي لم تستعد قوتها السالفة ولم تأت لها الايام بالسلم والراحة والطمأنينة التي كانت تحلم بها طول أيام الحرب .

كانت العشرون عاما التي اعقبت الحرب العظمى كشرط سينمائى
للحوادث استمر يعرض علينا مصائب الشعوب ومشاكل الحدود
والاقلليات والثورات المتتابعة ^(١).

وكان البلقان فى القرن الماضى يحمل هذا الطابع فأصبحت اوربا
بلقاناً ثانياً لأن ما أثارته الحرب وسنوات ما بعد الحرب من المشاكل
والشكوك والريب والأطماع كانت اضعاف ما عرفتة اوربا فى قرن من
الزمن وقد جاءت هذه كلها وجراح اوربا لم تلتئم بعد فكانت شديدة
الوقع على الشعوب ومقدراتها.

كانت أوربا قبل الحرب ست دول عظمى هى بريطانيا وفرنسا
وروسيا ثم المانيا والنمسا والمجر وإيطاليا هى التى تسيطر على الحرب
والسلم وتقيم سياستها على قواعد الدبلوماسية السرية وأساليبها الملتوية
وانتهت الحرب فادا أكبر متاعب اوربا تسببها مجموعة من الشعوب
الصغيرة التى أو جدتها معاهدات الصلح دون أن تستند على دعائم
تاريخية ثابتة أو أسس راسخة فهذه الدول المرتجلة أمضت العشرين
عاما بين الحربين تتأرجح بين التيارات المختلفة فهى لم تثبت على
مبادئ واحدة ولم تنهج سياسة معينة وكما كانت فى الماضى ستكون
فى المستقبل من اهم العوامل التى ستثير الحرب العالمية الثالثة.

فقد كان تنازع هذه الدول على مقاعد عصبة الأمم يضحك اوربا

(١) ان الفراغ الذى تركته امراطورية هابسبرج فى وسط اوربا : قد
اعترف به أولئك السياسيون الذى نادوا بتعطيمها — واليوم يعترف
الانجليواميركان بخطأهم فى اضعاف المانيا وتحطيمها.

كما كان اجتماع مجلس التحالف الصغير المكون من تشيكو سلوفاكيا ويوجو سلافيا ورومانيا لتهديد حكومة المجر المجردة من سلاحها يدل على شجاعة ولكن هذه الجراءة لم يجد لها العالم من أثر حينما انفض المجلس وتضاءل وانكمش امام قرار ضم النمسا لالمانيا الكبرى واحتلال تشيكو سلوفاكيا : لئلا ينهى التحالف الصغير وسط ضحكات السخرية والتهكم وقتئذ .

فهذه الشعوب والدول الصغرى كانت تسبب الكثير من الضجيج ولكنها لم تكن يوما ما مستقلة فى سياستها ولم تكن مخلصه للمواثيق والعهود التى قطعتها على نفسها بل ستبقى فى المستقبل كما كانت فى الماضى العوبة بيد السكتل الكبرى .

١٨ — التهيئة للتركيز الاقتصادى فى السكتل الكبرى :

فقدت أوربا مركزها الممتاز وسط الفوضى التى كانت سائدة فيها بانهيار القوة التى كانت تمتلكها شعوبها أمام العالم ، ولذلك اتجهت الدول العظمى الاستعمارية إلى دعم مستقبلها معتمدة على عوامل عالمية أو كونية أكثر منها محلية أو أوروبية ، وكان التفوق الصناعى والمقدرة الرأسمالية تسيير بالدول الاستعمارية نحو التركيز الاقتصادى أو فى طريق خلق نوع جديد من الامبراطوريات الاقتصادية أو الوحدات المكونة من مجموعة من الدول والأمم التى وإن كانت

غير مرتبطة سياسياً فهي متعاونة اقتصادياً ومادياً وهذه كانت بداية
الكتل الكبرى التي ظهرت في العالم ونراها اليوم في عنفوان قوتها.
١٩ — خروجها من الأزمات ومواجهتها للمتناقضات :

ولم يكن هذا الترجية في حلم أحد من الناس بل هو النتيجة
الطبيعية للعوامل التي سببها التوسع الاستعماري الجارف وهذا
التطور الذي صبح العالم وبينما كانت هذه الأمم في غمرات هذه
الفترة تسير بخطوات واسعة نحو تأكيد سيطرتها معتمدة على تفوقها
ظهرت المتناقضات في أنظمتها الاقتصادية (١).

فالأنظمة الرأسمالية وقواعد استثمار المواد الخام وكذلك
شركات البترول العالمية لم ينمكر أحد من رجالها في الأزمات المتتالية
التي بدأت سنة ١٩٣٠ وغمرت أمريكا وأوروبا وهددت بالإفلاس
المؤسسات الاقتصادية والمالية الكبرى فلم تكن هذه الرجات
أوروبية أو أمريكية أو محلية حتى يمكن تلافيها بل كانت عالمية تشبه
السنوات العجاف التي تحدثت عنها الكتب السماوية .

كانت هذه الأزمات الواقعة بين حربين امتحاناً قاسياً للأنظمة
الرأسمالية وهيكلها الاقتصادي ولقوة المقاومة لدى الدول الكبرى
ثم كانت أهم من ذلك إذ برهنت على قوة الرأسمالية واستعدادها
للخروج منتصرة من وسط الأزمات وقابليتها لمواجهة المتناقضات

(١) لم تظهر المتناقضات في النظام الاستعماري لكل دولة بل في المجوع
الاقتصادي كله نتيجة لسياسة المنكسر الانفرادي لكل كتلة من المستعمرات

وهى ميزة لم تتمكن الشيوعية بعد من إثباتها أو البروز بها رغم خروجها منتصرة من الحرب الأخيرة .

وكانت هذه الأزمات دافعاً قوياً أقنع بريطانيا وأمريكا أن مستقبل العالم يتطلب تنهما وتعاوناً وتكاتفاً بين حكومات الانجلوسكسون وبدت هذه الظاهرة واضحة لمن أنصت إلى خطاب الرئيس ويلسون سنة ١٩٣٦ وهذا التفاهم هو الذى أدى إلى دخول الولايات المتحدة فى الحرب وهو الذى جعلها تقف فى صف بريطانيا بعد انتهائها لمواجهة مشاكل العالم الجديد . والذى سيحكم يوماً تأليف كتلة منهما ازاء السوفييت

٢٠ — نظرة شرقية للعالم بين حربين :

لم تحصل أمم العالم على شىء من حريتها بعد الحرب الأولى ، وبقيت كما كانت خاضعة لسلطان أوروبا ودولها^(١) ومع هذا كان يبدو للناس أن الدنيا يغمرها طوفان أو فيض هائل من خيرات الله ، ولم يحدث فى العالم أن وصلت مستخرجات المواد الأولية إلى ملايين من الأطنان من كافة الأصناف إلى ما وصلت إليه فى السنوات العشر بين سنة ١٩٢٠/١٩٢٩ ، وما يقال عن المواد الأولية يقال عن المنتجات الزراعية والصناعية وغيرها مما تخرجه الأرض وتصنعه يد الإنسان ويقابل هذا الفيض العظيم حرمان غريب فرض على أكثر من

(١) استعملت مبادئ ولسون لتحرير شعوب المستعمرات وطبقت فى أوروبا فسببت قيام الحرب الثانية .

ثلثي الإنسانية الذين يعيشون في مستوى من الفقر والفاقة لا يتناسبان مع المستوى اللائق بانسان ففي الوقت الذي كانت فيه ثروات العالم وخاماته تنقل بانتظام على البواخر بين القارات وصل استغلال الشعوب الاسيوية والأفريقية وبعض الامريكية الى منتهاء بل الى درجة لم تعرفها الارض قبل ذلك وفي الوقت الذي كانت الدول الحاكمة تصرف الملايين على بناء الاساطيل وعلى ميزانيات الجيوش كانت هذه الاجزاء المغلوبة على أمرها تعاني من ويلات المجاعات والأوبئة وتخسر من انبائها مالم تكلفه الحروب من خسارة في الارواح وكان ما يصرف على انشاء بارجة واحدة يكفي لتعليم ابناء أمة ترزح تحت يرثن الاستعمار وما يصرف على فرقة دبابات مدرعة يكفي لايواء أهل مدينة واسكانهم في منازل تشبه البيوت التي يسكنها الناس في أوروبا وامريكا أن التسليح الجارف استهلك أحسن ما اخرجته عقول البشر وافقر الإنسانية وجعل بقاعا من الارض تستمر خرابا الى اليوم .

ان أكبر متناقضات المدنية الحديثة مدنية الرجل الابيض سواء كانت رأسمالية أو شيوعية ديمقراطية ام نازية هي أن غالبية سكان الأرض لا يصيهم منها سوى النزر اليسير ان لم يكن أقل من اليسير من الفيض الذي تخرجه اراضي بلادهم فسواء كان الاستعمار اوريا

أو امريكا أو سوفيتيا فهو واحد لا يتغير ويصدق في سكان المستعمرات والبلاد المحكومة قول الشاعر العربي .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول
ولنضرب لهذا مثلا عن سكان الأرض وتعدادهم وهو لا يقل عن
ألفى مليون نسمة ثم خذ المستوى في بلد من بلدان المستعمرات
في آسيا وافريقية ، أو في بعض بقاع أمريكا الجنوبية نجد أن أكثر
من نصف السكان من رجال ونساء وأطفال شبه عراة وهذا مما يجعل
أكثر^(١) من نصف الإنسانية في حاجة إلى الكساء بينما كانت آلاف
الأطنان من القطن الخام يحرق في المزارع الأمريكية من أجل
نصف ريال يدخل في جيوب المنتجين .

ولا تزال مشكلة نقص الغذاء تشغل العالم وهي مشكلة مخيفة إذا درسناها
على ضوء الدروس التي تلقيناها مصر في أدوار الغلاء والمجاعات التي مرت
بها في السابق وهبط بسببها عدد السكان وخربت مناطق كانت عامرة
في شمال الدلتا ، وفي مديرية البحيرة ، وعلى الطريق بين الإسكندرية
وبرقة^(٢) .

ولا تزال ذكرى مجاعات الصين والهند تعاودنا ، ولا يمر عام
رغم ارتباط العالم وسهولة مواصلاته دون أن نسمع بإصابة المناطق
الروسية بقمح شديد ، حتى في سنوات الخصب والرواج تجد أن

(١) بقدر الكاتب الأمريكي إستور داد عدد الشعوب الملونة بأكثر من
نصف سكان الأرض (٢) راجع كتاب المقريري (اغاثة الامه بكشف الغمة)

أهل المستعمرات لهم نعيمهم من قلة الغذاء ونقصه ، بل ذكر كثير من رجال الاستعمار أن هناك ملايين من بني آدم لا يصيبهم غير وجبة واحدة وضئيلة في اليوم الواحد ، وكثيرا ماتكون مكوّنة من المرق وقليل من الأرز بينما هناك الأطنان من المواد الغذائية كانت تستعمل للحريق في القاطرات والبواخر لأن بلادها تريد أن لا تخسر ريالا من أثمانها

وإذا كان الاستعمار من وسائل تعذيب الشعوب لخدمة دول معلومة ، أو طبقة حاكمة فيها فإن الاتحاد السوفيتي ضرب مثلا في تعذيب ١٨٥ مليوناً من الناس لتطبيق نظام خاص فإن المبالغ التي صرفها الاتحاد على المزارع التعاونية والنوذجية وإدخال الصناعات قد نقلت فعلا الاقتصاد الروسي إلى الأمام ، ولكنها اشترت بثمن فاحش وبجرمان الشعوب من حق الحياة الحرة ، وهل يمكن معرفة عدد السعداء حقيقة بين حدود حكومات الاتحاد السوفيتي . (١)

مهما كانت الظروف المحيطة بالعالم اليوم وهي لا شك غير مشجعة فقد كانت مثل هذه الظروف سائدة قبل الحرب ، ولكن النيات كانت رغبة في الخروج من هذه الحالة أما اليوم فلا توجد هذه النية . بل كل الدلائل تقنع باقتراب العاصفة ففي تلك الأيام قامت الدعوة لعقد مؤتمر اقتصادي عالمي في مدينة

(١) خصوصا بين شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والقرم الإسلامية

لندرة ولم يأت الاجتماع إلا بعد أن توالت النكبات وتعاقبت
الآزمات قبل سنة ١٩٢٣. وكان الغرض الخروج من حالة مبهمه .
وتعود بي الذاكرة لاقتناص بعض ما وعته نفسي ، فيأني رغم
ابتعادي عن التفاصيل اذكر مبدآن نودى بهما وقتئذ .

الأول - أن بقاء الاتحاد السوفيتي يحكم سبع الأرض المعمورة
تحت انظمة تجعل منه بقعة بداخل سور فولاذي ، ويمنع أهله عن
الاتصال والأخذ والعطاء مع الأمم الأخرى ^(١) قد أخل بالتوازن
الاقتصادي العالمي ، وإن الأمم لن يتحقق لها الخلاص من الآزمات
إلا إذا عاشت الدنيا تحت نظام متجانس . وقال الآخرون إن علة
المدنية الحالية هو كثرة الانتاج ، وإن علاج الآزمات هو رفع
مستوى الجماعات البشرية التي تعيش في المستعمرات ووضعها في مستوى
يسمح لها أن تبيع وتشتري وتحيا حياة الانسان وهذا هو المبدأ الثاني .
أما النظرة الشرقية بعد هذا فترى أن الحياة لا تحتل كل هذه
المفارقات وأن ما يصرف على الأساطيل والجيش هو مثل ما يصرفه
السوفييت على جيوشهم ومزارعهم ومصانعهم تدفع ثمنه البشرية
من حرمانها فلا يرتفع مستوى الجماعات في المستعمرات إلا اذا وطنت
الأمم الأوربية نفسها على السلام لأن الأسلحة التي تجمعها هولا ندة هي
من دماء اندونيسيا والغريب أنها توجه في النهاية إلى صدور الأمم المظلومة

(١) لا تزال هذه الفكرة قائمة الى اليوم وهي المحرك الاساسي للحرب القادمة

والصناعات التي يقيمها السوفييت ويبدلون الجهود من أجلها قديسهل على الآخرين إقامتها وإنشاءها في روسيا بتكاليف أقل وبدون أن تتحمل الشعوب السوفيتية هذا الجهاد الهائل والحرمان الدائم. إنك تحكم على فرد بالأشغال الشاقة مدة طويلة لتعده بأن يملك يوما عمارة أيومبيليا مع أن فتح هذا السور الفولاذي من حولهم يعيد الحياة إليهم، ويجعل من الدنيا موطننا واحدا للبشر كافة وهذه رسالة الرأسمالية في نظرهم.

كان مؤتمر لندرة الإقتصادى كسوق قام ثم انفض ولم يرج فيه أحد فلم تحل مشكلة المواد الأولية لأنها أساس الاستعمار وبقيت هذه المواد وأصحابها: أى سكان البلاد المظلومة على الحالة التي وجدهم المؤتمر عليها، ولم تلتق نظريات الروس مع عالم رأس المال، ولم تتفق حتى الأمم الرأسمالية عند فكرة واحدة ولو أمكن الإنفاق على المواد الأولية ورضيت الدول الاستعمارية أن تشترك معها بقية الأمم فى شيء من خيرات الأرض لما قامت الحرب العالمية الثانية وهكذا تفرغت اللجان فى المؤتمر وتوزعت الأعمال ووضعتم التقارير وخسر العالم آخر فرصة لإنتماذ السلم إذ بعد فشل مؤتمر لندرة سنة ١٩٣٣ تسابقت الدول إلى التسليح واستعدت للحرب العالمية التي بدأت منذ سنة ١٩٣٣ ولم تنته بعد.

قامت هذه الحرب والعالم مكون من عدة كتل تختلف قوة وهي:

١ — الولايات المتحدة وممتلكاتها ودول الأمريكيتين.

- ٢ — بريطانيا وأمبراطوريتها وأصدقائها ومعها هو لاندو
ومستعمراتها والبرتغال ومستعمراتها.
- ٣ — روسيا في أوروبا وآسيا .
- ٤ — فرنسا ومستعمراتها وفيها باجيك وتوابعها .
- ٥ — اليابان والشرق الأقصى .
- ٦ — ثم إيطاليا تحاول أن تبني لها أمبراطورية .
- أما بقية العالم فاستمر حائرًا ينظر إلى المستقبل بأساليب القرن
الماضي أحيانًا وكانت ألمانيا تسير بخطوات جبارة وهي التي تملك
أكبر جهاز صناعي في أوروبا ولا ينقصها سوى المستعمرات لتكوين
أكبر السكتل العالمية وهذه سرقت منها في فرساي ولما وفقت الأمل في
أخذ المواد الأولية بالسلم في مؤتمر لندرة استعادت أن تأخذها بالسيف
وكانت إسبانيا في موقف أمة شرقية تحاول أن تقلد الغرب وتنم
ملء جفنها لتحلم بالارماد تمخر البحار وفرديناند^(١) وإيزابلا يطاردان
الموريسكو^(٢) الملعون على سفوح جبال أطلس وكانت إيطاليا لا تنفك
تردد أغنية الأمبراطورية الرومانية في الصباح والمساء حتى ضج
الناس من روما ومجدها وشرائعها وكان للتحالف الصغير مشكلة
تقلق مضاجع كل من رومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا
هي قبعة الأمير الطفل الوارث لعرش هابسبرج وكانت بولونيا

(١) اسم ملك إسبانيا وملكتها اللذين طرد العرب في عهدهما .

(٢) الاسم الذي يطلق على المسلمين .

فرنسية عاما حيادية عاما وانتهت إلى أن جعلها الكولونيل بيك وزير خارجيتها حليفة لألمانيا ثم دهمته الطائرات الألمانية حتى خرج شاردأ من بلاده .

هذه حالة أوروبا عند قيام الحرب بعد إن فشلت إجتماعات لندرة لتأليف عالم جديد بالتفاهم والإرادة الحرة ثم ظهر أن الفريق الغالب هو الذى يملك من القوى الإنشائية والدعائم الاقتصادية أكثر من غيره وأن الأسلحة تدوب وتنفى والمبادئ المتطرفة والأحزاب تبلى بجانب هذه السيطرة الصناعية القوية ولذلك أخذت خطوات التكتل تسير بسرعة فائقة فهو لاند و البرتغال انجهتا نحو الكتلة البريطانية و جمهوريات أمريكا الجنوبية التأمّت فى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة .

وانقسم العالم الرأسالى شطرين : الذين ملكو الأرض واستكفوا^(١) والذين يرغبون فى المستعمرات وقادت ألمانيا الفريق الثانى وانضمت إليها إيطاليا واليابان وحالفتها إسبانيا وانتهت الحرب فإذا الرأسالية ممثلة فى كتلتين أمريكا وبريطانيا وذهبت اليابان وإيطاليا وضعفت كتلة فرنسا أمام صيحات موسوليني الذى مات بعد أمضى السنوات يقول :

« المستكفون لا يشعرون بحاجة غير المستكفين » وهذه مع أمبراطوريتها فى الجزء الشمالى من افريقيا موضوع هذا الكتاب .

(١) راجع : خطب ومؤلفات موسوليني

القسم الأول

فرنسا ومستعمراتها

هذا بحث تحاميلي للاستعمار الفرنسى ومتابعه ، نعرض له بطريقة اجمالية ، ونستعرض بعد النواحي التاريخية والاقتصادية وأحيانا العسكرية مع الاشارة إلى الوضع الشاذ الذى كانت فيه المستعمرات الفرنسية بين المانيا والحلفاء مدة الحرب الماضية .

إن مالقيته قضية فلسطين فى أمريكا وأمام مجلس الأمن تجربة قاسية للعرب لأن الانتصار على الخصم يستلزم فهم الخصم والالمام بأساليبه . وفى هذه الكلمة أفكار وآراء قد لا تعجب بها ولكنها فى صميم الدفاع عن قضية المغرب وحق شعوبه لأنها مستقاة من أقوال الخصم وهى مدعاة لفهمه ولن تنصرف على خصمك إلا إذا فهمته .

١ - فرنسا ومستعمراتها

كانت فرنسا دولة استعمارية كبرى فى القرن الثامن عشر خضعت لسلطانها مساحات واسعة فى أمريكا الشمالية ، وأكثر من منطقة

غنية من مقاطعات الهند ، ولكنها فقدت هذه المنزلة في حروب القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية فأخذت تجاهد طوال المائة سنة الماضية لكي تسترجع مقامها كدولة استعمارية ، ولقد برهنت تجارب أكثر من قرن على تعذر تحقيق السيادة البحرية لفرنسا ، وكان ضياع المستعمرات البعيدة في أمريكا والهند كافيا لاقناع الفرنسيين أنه لا يمكن ضمان الدفاع عن فرنسا دون أن يكون لها أسطول قوى يضارع ما للأمم الأخرى ممتلكات .

فكان مما فكر فيه نابليون أن يختصر الطريق البحرى الذى يفصل فرنسا عن الأراضى التى تخضع لها فقاد حملة مصر مؤملا أن يجعل منها قاعدة للتوسع الاستعمارى الفرنسى بالشرق ، وكانت بريطانيا تعرف أن هذه الضربة موجهة إليها فى الهند فوقفت أمامه ، وقطعت الطريق البحرى عليه ، وأجبرت جيشه على الجلاء ، فالحملة الفرنسية على مصر كانت تجربة برهنت على أن الفن الحربى الحديث قد جعل من السهل التغلب على جيوش المسلمين فى أراضهم^(١) ، ثم فتحت الأذهان إلى استعمار الجزء الأفريقى المقابل لأوروبا ، فهى فاتحة الاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر .

ولا تنس أن فرنسا حينما اضطرت إلى اخلاء مصر كانت تفكر فى العودة إليها وتأسيس الامبراطورية الاستعمارية عن طريق البران

(١) راجع Hislôny of the Egyplion Revolution عن معركة الاهرام
A . . A . Paton التى ازال مابقى عالقا فى عقول الاور و بين مدة قرون
عده من ان قوة المالك لا تقهر

يمكن ، أو قل على الرمال التي أراد أن يسير عليها لويس التاسع لفتح
مصر فلقى حتفه في تونس ولذلك اتجهت أنظار رجالها إلى بقعة من
الساحل الأفريقي تكون أقرب إليهم وأبعد عن إثارة شكوك ومخاوف
بريطانيا ، فلم تجد أقرب من الساحل بالجزائر ، اذ هو أسهل
طريق للعبور إلى أفريقية وأسلم ما يصلح لاتخاذ مرافقه مثل الجزائر
وهران وغيرها كرؤوس جسور للزحف إلى الداخل ، وقد خدمتها
الظروف حينما اشتد العداء بين مصر وتركيا فانقسم الشرق على
نفسه ، وخلا لها الجوفى الجهة التي تطمع بامتلاكها ، وحينئذ قذفت
بجيوشها بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧ على القطر الجزائري في الوقت الذي
كانت جيوش مصر وتركيا تتقاتل قتالا كانت نتيجته أن انتهى
بالفشل للجانبين بينما اندفعت هي بقوة لترسيخ أقدام جنودها على
الأرض الأفريقية ، التي حملت أعلام دول الموحدين والمرابطين ،
وكانت في وقت ما مؤثلا للعروبة والاسلام فأخذت تحارب أهلها ،
وتشتتهم ، ولما انتهت حروب الاتراك والمصريين لم يكن بوسع أحد
الطرفين أن يمد يد المساعدة أو يجهر بالدعوة لنصرة المجاهدين من
قبائل الجزائر المدافعين عن بلادهم ، فكان أن سلم الأمير عبد
المعز للفرنسيين ، وإذا نحن أمام أول هزيمة للاسلام بشمال أفريقية
وإذا نحن في بداية الأرزاء التي أعقبت توغل الفرنسيين في المغرب
وننتج عنها تأسيس امبراطورية ضخمة في بلاد عربية .

٢ - أوروبا تشجع فرنسا في توسعها خارج القارة الأوروبية

وكانت فرنسا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أقوى أمم أوروبا وأكثرها سكانا إذ بلغت ٢٥ مليون نسمة وهو عدد عظيم لما كانت عليه أوروبا في ذلك الوقت وبذلك تفاعل الساسة الأوروبيون بالاتجاه الجديد الذي سارت فيه ووجدوا أن من مصلحة السلام والأمن في القارة الأوروبية تشجيع هذا التوسع والتزام سياسة الصمت إزاء هذا العدوان لأنه سيؤدي إلى أشغال قوى فرنسا البرية وإلى توزيع جهود هذه الأمة الحربية في ناحية لا تضرهم خصوصا إذا وجد ضباط الجيش ورجال الجندية الذين أسكرتهم ذكريات الانتصارات الماضية مجالا للنشاطهم في بلاد بعيدة عن أوروبا ، بعد أن دوخوا أuma كثيرة بحروب دامت جيلين ، وقد تم لهم ما أرادوا ، وقنعت فرنسا ورجالها بهذا الدور ، وزاد تمسكهم به ، خصوصا بعد هزيمة ١٨١٥ . وهزيمتهم في حرب ١٨٧٠ مع المانيا

٣ - فرنسا تجعل من أراضي افريقية معسكرا لتموين جيوشها وضباطها

فكان أن أصبحت فرنسا بعد عدة سنوات تملك الشاطئ الافريقي وتسيطر على مناطق وأقاليم متسعة في الصحراء تتنقل فيها كتابها ويتدرب قوادها وضباطها بأنحاءها على أساليب القتال المختلفة

ويتلقون دروساً عملية باتخاذهم الحروب صناعة دائمة ضد الأهالي ويمتعون أنفسهم بأدخال الجديد كل سنة على كتب التدريب والقيادة وأنظمة تعليم عساكر المستعمرات من الجنود الملونة .

وجاءت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وفرنسا ثانياً دولة استعمارية في العالم فخاضت غمارها وأعلامها تحفق على السكتائب المؤلفة من جنود المغرب ومدغشقر والهند الصينية والسنگال تسوق الآلاف منهم إلى الموت وتدفع بهم إلى الصفوف الأمامية ، ثم أمضيت معاهدة الصلح فإذا بمناطق شاسعة من أملاك المانيا الافريقية تدخل ضمن نطاق الامبراطورية الفرنسية أما عن طريق تعديل الحدود ، أو عن طريق الانتداب جزاء وفاقاً على المجهود الحربي الذي بذله جنود المستعمرات من السمير والسود في كفاحهم لتحرير العالم . فإذا نظرت إلى خريطة لأفريقيه نجد الامبراطورية الفرنسية كتلة ضخمة ملونة بلون واحد تقع جنوب فرنسا وكأنها جزء متمم لها ، أو امتداد لأراضيها لا يفصلها عنها غير البحر الأبيض المتوسط ، ولكن طريق سهل قريب لانه يجمع بين الشاطئين في ساعات معدودة ، وهذه الامبراطورية أو المجموعة من المستعمرات تبدو أمام الناظر والبحر يحيط بها من ثلاث جهات المتوسط : في الشمال ، والمحيط الاطلسي في الغرب والجنوب ، ويفصلها عن بعضها الصحراء الكبرى

وهى فى صمتها وتحديها للإنسان لاتزال كالربع الخالى فى جزيرة العرب ، تسخر من الإنسان الذى لم يفك أسرارها بعد ولم يخضعها لإرادته فقد فكر المستعمرون فى استثمار أراضيها ، وفى اختراقها بعدة طرق ممهدة للسيارات ، أو إنشاء خط حديدى يقطعها من الشمال إلى الجنوب ، ولم يتحقق للآن شئ من ذلك لأن مجهودات فرنسا محدودة ؛ وهى ان تسمح لغيرها من الدول أن يتولى هذا العمل عنها ، ويحيل إلى الباحث أن هذا العمل الاستعمارى الذى بدأ بعد حروب نابليون طفرة فأصبح حقيقة فى عصرنا الحالى يبدو كعمل عظيم ساهمت فيه أمة برجالها ودمائها وتفكير أبنائها ، وأنه إن دل على شئ فهو يدل على عبقرية الذين جاهدوا فى انشائه وجمعوا بصبر شتاته فتمقوا لبلادهم حكم امبراطورية موحدة كافية لاسعاد أى بلد أوربى يمكنه أن يتحول باستغلال خيرات هذه الامبراطورية وثرواتها وأراضيها إلى بلد عظيم فى الصف الأول من العالم .

فهل وصلت فرنسا إلى أن تحكم بعقل وحكمة ودراية هذه الامبراطورية؟ وأن تحسن سياستها مع الشعوب التى تسكنها ، فتسعددها وتزيد من عدد سكانها؟ وتأخذ بيدهم فى طريق الحضارة ، والعلم ، والحكم الذاتى ، حتى تجتئ ما فى هذه الأراضى من الخيرات والثروات؟ الواقع أن فرنسا لم نوفق كثيراً فى مضمار الإستعمار كما يفهمه العالم الغربى ، وإن وفقت فىلى حد لا يتناسب مع جهودها ، أو هو

ضئيل بجانب ما كان يمكن أن تصل إليه ، ذلك لأنها بقيت ولا تزال تعيش على أساليب الماضى فى إدارة مستعمراتها ، وفى علاقاتها مع البلاد الخاضعة ، وإلا فلماذا يواجه الباحث فى أنحاء أمبراطوريتها ما يشعره أنه داخل حصن كبير أو معسكر من المعسكرات وحوله نطاق من الأسلاك الشائكة يحرسه جنود من السنغال يسيطرون عليهم رجال أشداء ، أعظم همهم قطع كل العلائق بين هذه البلاد والعالم الخارجى ، ولا يعرفون سوى قانون البطش فى علاقاتهم مع السكان . لماذا يلزم الناس هذا الشعور دائماً ؟ لأن عيوب الإدارة الفرنسية للمستعمرات ظاهرة واضحة ملموسة ، وموقف الحكومة المركزية ومثاليها يشعر كاستمرار أن فرنسا لم تنجح كأمة حاكمة ولذلك لم تستطع أن تقدم دليلاً واحداً على رغبتها فى تحرير الشعوب المظلومة ولا فى الأخذ بيدها فى طريق العلم والنور ولا فى إعطائها ما تطلب من حرية أو حكم ذاتى ، أو إشراكها فى إدارة الأمور العامة ، أو تسليم البعض منها إلى أهلها كما أنها لم تقدم للعالم برنامجاً إنسانياً يمكن أن يحقق شيئاً من ذلك .

إننا لا نقر الاستعمار على أى وجه من الوجوه ، ونراه نكبة على البلاد والأمم التى أصيبت به ، ولكننا مع ذلك ننقل عن كتاب الغرب وعن الفرنسيين أنفسهم ما يعترضون به على هذه الإدارة

ونتساءل مع الباحثين : لماذا تطور العالم ووقفت فرنسا جامدة لا تتقدم ؟ ولماذا غمرت الدنيا موجات التحرير في أفريقيا وآسيا وتسلمت إلى الأراضى الفرنسية وفرنسا واقفة لم تتغير ولم تستفد شيئاً من دروس الماضي ؟ ثم كيف تقدم على إقرار سياسة الاندماج والاتحاد في وقت تبدو فيه عوامل التفكك والانحيار ملهوسة واضحة ؟ أليس فرض سياسة الاتحاد دليلاً على إفلاس السياسة التي اتبعتها الحكومة الفرنسية ، والتي كانت ترمى إلى إلغاء الجنسيات والقوميات في بعض الجهات وصهرها في بوتقة واحدة ؟

٤ — نظريات استعمارية :

يقول الباحثون في الاستعمار وشثونه : إنه كمشروع تجارى يجب أن ينتهى بالكسب ، على أقصر سبيل وأهون طريق ، فليس من مصلحة الدول الحاكمة أن تتحمل تكاليف إدارة المستعمرة ، وحفظ الأمن فيها ، بل هي تساعد على أن تقف المستعمرة معتمدة على مواردها الخاصة ويكره المستعمر استعمال العنف والقوة ، ويعد التلويح بهما ضعفاً ، والاتجاه اليهما مخاطرة ، يتحاشى الوقوع لما أمكن فيها ، فهو كالتاجر الذي يحاسب على الدائق ويحسب للمستقبل ألف حساب ، ولذلك يعتمد في حكم الشعوب على نفسياتها وفهمها ليستغل غرائزها لصالحه ، ولا يلجأ إلى السلاح إلا في الوقت المناسب ،

وبالقدر اللازم ، وهو أسرع الناس الى ازالة اثر القوة من نفوس المحكومين . هذه هى تجارب الأمم التى سارت فى هذا النشاط شوطا بعيدا فهل اتبعت فرنسا أو أخذت بهذه السياسة ؟ إن التقاليد التى وضعتها حكومات فرنسا المختلفة فى سياستها الاستعمارية كانت جامدة وصعب فى كثير من الأحيان على المسئولين تغييرها واستبدال غيرها بها نعم عملت أحيانا للخروج عنها شخصيات قوية فرضت نفسها مثل الماريشال ليوتى فى مراكش ، ولسكن سرعان ما عاد الروتين الاستعماري الى قواعده وفرض أرادته من جديد .

ومن عيوب الاستعمار الفرنسي أن فرنسا بدأت حملاتها بتكاليف باهظة أى أن كل قطر أو بقعة من الأرض دخلتها ، أو بسطت حمايتها عليها كلفت دافعى الضرائب الفرنسيين مبالغ لا يستهان بها . وقد جاءت تكاليف الفتح ثقيلة ، لأن الطبيعة الفرنسية تريد أولا الغلبة والنصر ، فهى قد حكمت السيف حيث يلزم السيف ووضعت السيف أيضا حيث كان يلزم غير السيف ، وفى ذلك مخالفة لقواعد الاستعمار الذى يسمن البقرة ليستدر أكر كمية من البانها ، أما هى فحينما حلت تحمّل الأهالى الكثير من الفقر والفاقة والعنت والتشريد ولقد عهدنا المستعمر يتخذ له بطانة من أهل البلاد المستعبدة ، يروضهم على أغراضه ، ويوسوس لهم بما يريد ، فإذا هم طوع اشارته

يصل بواسطتهم إلى أهدافه وأغراضه ، من غير أن تظهر نياته ، أو تشعر بأنفسه ، ومن دون ضجة ولا جلبة ، وللاستعمار الفرنسي من يخدمه باخلاص من زعماء البلاد الخاضعة له ، ولكن فرنسا اعتادت أن تضع على أكتاف رجال فرنسيين من العسكريين والمدنيين العبء الأكبر من المسؤوليات ، وأن تسند إليهم مباشرة سلطات التشريع والادارة والتنفيذ ، فان أساءوا التصرف تحملت هي عبء الأخطاء ، وخسرت عطف الناس بالدفاع عن رجالها ، بينما قواعد المستعمرين تحتم على الدولة الغاصبة أن ترسم الخطط الكبرى ، وأن تترك أمور التنفيذ لأهل البلاد ، يتولونها بأيديهم ، حتى إذا أخطأوا ، وغالباهم مخطئون - تبرأت السلطات منهم ، وألصقت الأخطاء بهم وأتت بفريق جديد يتولى تمثيل نفس الدور ، وهذا النظام الأخير جعل عيوب الادارة الاستعمارية ملصقة بأهل البلاد دائما ، بينما النظام الفرنسي يضع العيوب على رأس الدولة المستعمرة ويحملها الأخطاء والأعباء كلها .

هـ — تأخر المستعمرات الفرنسية في ميدان الحضارة وأسبابه :

وهناك ظاهرة أخرى لها أهميتها ، وتكاد تنفرد بها المستعمرات الفرنسية وما يشبهها من ممتلكات بعض الدول الأوربية ، التي احتفظت بمستعمراتها كثرات تاريخي لماض قديم ، وهذه الظاهرة

هى أن التقدم المادى الذى صحب العالم فى السنوات الماضية والذى فرض نفسه على أغلب المستعمرات فى قارات العالم لم يشمل الأمبراطورية الفرنسية ، ولذلك إذا تحدث الفرنسيون عن مجهودهم الاستعمارى وملأوا العالم بكتبهم ونشراتهم فهو مجهود عظيم من وجهة نظرهم وحدهم ، ولكنهم مجهود متواضع إذا قيس بما قامت به الأمم الاستعمارية الأخرى ، فإذا نزلت بشمال أفريقيا وهى من البقاع الخصبة الغنية بمواردها وثرواتها المعدنية ، وقارنت ما عملته فرنسا هناك بالمجهود الذى بذله الاستعمار فى نواح مماثلة لوجدت أن مجهودها لم يصل إلى الدرجة التى تسمح بها حضارة القرن العشرين وبما تضعه بين أيدي الإنسان من وسائل تمكنه من السيطرة على الطبيعة ومن إخضاعها لإرادتها : والأمثلة على ذلك كثيرة إذ تجدها فى كندا وأستراليا وأفريقيا الجنوبية ، وزيلندة الجديدة .

٦ — تحليل هذا الوضع :

ويعللون هذا النقص أن فرنسا بلد زراعى فى حياته الاقتصادية وهذا الوضع ينقص من طاقة فرنسا وامكانياتها كدولة عظمى ، ثم هى وطن المملوكيات الصغيرة ولذلك يبرز فيها عامل اقتصادى هام هو عامل الادخار أو التوفير النقدى الشعبى الذى يعتمد فى تراكمه وازدياده عاما بعد عام على ملايين من الناس وقيل أن هذه الأمور

مجتمعة تؤثر في سياسة الدول حينما تواجه عملها في المستعمرات لاستغلال مواردها وذكر بعض الكتاب أن فرنسا كانت تحسن صنعاً لو أنها من البداية فتحت أبواب امبراطوريتها للنشاط الدول الصناعية الكبرى ، مثل أمريكا الشمالية ، أو بعض الدول الأوربية واسكن رجال الحكم وأساطين الاستعمار حرصوا منذ زمان طويل على وضع العراقيل الجمركية والنشريعة لمنع حدوث هذا النشاط بل أقفلوا حدود امبراطوريتهم وجعلوا منها مناطق محرمة ومنوعة لئلا تنافس يأتي إليها من الخارج .

ولا نشك في أن فرنسا كانت بلداً صناعياً من الدرجة الأولى وكان هذا في القرن الماضي ولكن ظهور الصناعة الضخمة وتطورها السريع في بلدان أوربية أخرى جعل منها بلداً صناعياً في الدرجة الثانية ولقد ذكرنا في بحث سابق أن التركيز الإقتصادي بين الدول الصناعية والمستعمرات أو بين المستعمرات وبعضها يعتمد على التفوق الصناعي والمقدرة الرأسمالية والانتاج الواسع وهي مجتمعة تمهد للدولة صاحبة الشأن أن تسيطر بالمستعمرات ومناطق النفوذ نحو التكتل الذي يجعل من هذه الدولة قوة عالمية ، أما الاستعمار الفرنسي فلا يزال في الدور البدائي الذي لم يتطور بهذه الوثبة ، ولعل شعور الفرنسيين بذلك هو الذي أملى على رجال السياسة مشروع الاتحاد الفرنسي الذي يحاولون تنفيذه .

٧ — فرنسا بلد زراعى :

وإذا نظرنا لحالها حالة فرنسا كبلد زراعى نجد أنها من أغنى البلاد الأوربية ، بل إحدى الدول القليلة التى تعد فى حالة استكفاء بالنسبة لغيرها ، ومعنى ذلك أنها لا تعاني مشا كل ومتاعب لا طعام سكانها فهى ليست بحاجة إلى مضاعفة المساحات المزروعة فى مستعمراتها ، فإذا كان هناك بعض الأثر للتطور الانتاجى الزراعى وزيادته ، ويبدو هذا ملموسا فى بعض المناطق أو مكللا نسبيا بالنجاح فى المزارع التى يملكها الفرنسيون بالمستعمرات فإنه محدود للغاية والوسائل .

٨ — رءوس الأموال :

أما رءوس الأموال وكونها مجمعة من التوفير الشعبى فيبدو فى اتجاه أصحابها إلى تفضيل القروض الخارجية للدول الأجنبية الصديقة لتصورهم أن فى ذلك ضمانات أكبر من المجازفة فى صرفها على مشروعات فيها روح المغامرة بأراضى المستعمرات وهى قاعدة مستمدة من طبيعة الشعب وعقليته .

٩ — فرنسا كبلد صناعى :

ونعود إلى الناحية الصناعية إذ هى العامل الأساسى الفعال لكل سياسة استعمارية موفقة نظرا لما تحويه أراضى القارات البعيدة

من مواد أولية ضرورية للصناعات ، ولأن عظمة الدول الصناعية بنيت على ما تقدمه أراضى مستعمراتها من خامات رخيصة قد تذهب أحيانا إلى تمكين كل واحدة من احتكار بعض هذه المواد وحرمان بقية العالم منها . فاذا نظرنا إلى حالة فرنسا بعد أن انتهت الحرب العظمى الأولى نجد أنه طرأ عايبا بعد سنة ١٩٢٠ تغيير بعيد المدى ، فقد بدأ يسيطر على مقدراتها طائفة من أصحاب الصناعات الكبرى يدعمهم رجال المال ، واعتمدوا على ما يشونه في الجماهير من آراء وأفكار ، عملوا على أن تصبح بالتكرار راسخة وأهمها فكرة أمن فرنسا وضمن حدودها أى إيهام الشعب بوجود خطر دائم يهدد كيانه لينذل مجهودا فى ناحية معينة أو ليستعد لتلبية التصحيحات التى يتطلبها العمل لدفع هذه الأخطار .

١٠ — فرنسا قبل الحرب العالمية وبعدها :

ولم تكن فرنسا قبل سنة ١٩١٤ فى حالة تمكنها من منافسة الدول الصناعية الكبرى التى نضجت أو أتمت بناء هيكلها الآلى الضخم لافى السوق العالمية ولا فى طريقة استغلال واستثمار أملاكها وكانت تلجأ إلى وسائل شاذة لحماية تجارتها فى الأراضى المملوكة لها فما بالك وقد بدأت بعد الحرب مباشرة تحمل أعباء إنشاء صناعة على نمط الصناعة الثقيلة - يقصد بها صناعات الحديد والفولاذ

والصناعات الكيماوية الكبرى — ولو أن التعبئة المالية والفنية والإنشائية للوصول إلى هذه الغاية كافية لأن تستنفذ مجهودات جيل بأكمله.

وقد بدأ هذا المشروع يسير سيره الطبيعي من يوم استرجاع مقاطعتي الأناضول واللوهرين ، إذ جعل ضم هاتين المقاطعتين بين يدي رجال الصناعة بعض ما كان ينقصها من مواد الصلب والحديد ، ويأجبنا لو ضم إليها جزء آخر من أراضي ألمانيا وهو الروهر إذن لحصلت فرنسا على ما تحتاجه من الفحم الحجري .

يلتمس الكتاب الفرنسيون بعض العذر لبلادهم في تقصيرها الاستعماري الذي ينسبونه إلى أن هذا المشروع الصناعي الكبير الذي جعل رؤوس الأموال تنبج إلى تحقيقه ، اتجاها ترك النشاط في أراضي المستعمرات قاصرا على الضروري اللازم ، وعليه تأخر تنفيذ المشروعات الكبرى التي وضعت لاستغلال أراضي جبال الأطلس بمراكش ونظر إليها وإلى غيرها نظرة ثانوية ، أو تأجل تنفيذها باعتبار أنها تكميلية للبرنامج الصناعي في أراضي فرنسا الأوربية .

وعليه فهم لا يسلهون بالنقص الذي بدأ من ناحية بلادهم ، ويقولون إن الفترة بين الحربين نقلت الدول الكبرى الصناعية

مرحلة نحو التكتل والتماكك مع المستعمرات بل ذهبت إلى إدخال الصناعات في أراضي المستعمرات نفسها كما حصل في الهند وأستراليا وأفريقيا الجنوبية وبقية فرنسا تدير مستعمراتها بأساليب قديمة إلا أنها حسنا فعلت لأنها انتظرت الوقت المناسب لكي تستفيد من تجارب غيرها ، ولكي يحين الوقت الذي تندمج فيه هذه الأقطار في نظام اتحاد فرنسي يشبه من بعض الوجوه نظام الاتحاد السوفيتي ، وحينئذ تظهر للعالم فرنسا الاستعمارية القوية ، التي لم تضع منها سنوات الانتقال ، بل كانت تحضر برنامجا صناعيا للمستعمرات سوف تدهش العالم المتمدن به .

وسنرى هل وقفت لشيء من ذلك بعد الحرب العالمية الثانية أم لا تزال كما كانت في الماضي تدير امبراطورية ضخمة تقصر عنها جهودها ؟

ان سنوات الحرب الاخيرة قد اظهرت العيوب والمتناقضات واهم من كل هذه اظهرت القصور عن ملاحقة الغير .
وطبيعى ان هذا البرنامج الذى يشيرون اليه لن يتحقق بغير مساعدة الولايات المتحدة اذا طبق فى يوم من الايام .

القسم الثاني

صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم

١ - فرنسا والحرب العالمية الثانية بين الديمقراطية والفاشية :

قامت الحرب العالمية الثانية وكانت فرنسا منقسمة في الداخل : فالروح الرجعية التي تفشت في عدة بلاد بأوروبا وأفريقية ، وآسيا أخذت في فرنسا مظهر العنف في مظاهرات السكوكورد سنة ١٩٣٣ وهذه الروح لم تكن قد ماتت في سنة ١٩٣٩ بل كانت تمثل مصالح وأغراض تلك الفئة التي أشرنا إليها من أساطين الصناعة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه البرامج ، وكانت هذه الفئة تؤمن بضرورة مسالمة برلين وروما ، لا حباً فيهما ، أورشوخاً لإرادتهما بل لأن الوطنية تملئ بأنه يجب تحمل كل شئ في سبيل السلم ، حتى تستكمل فرنسا بناءها الصناعي ولو كان في ذلك الخروج من ميثاق عصبة الأمم ، أو إهمال المحالفات والضمانات القائمة .

٢ - صداقة بريطانيا :

يقابل هذه الروح تيار الديمقراطية ممثلاً في روح الجماعات

والأحزاب السياسية والبرلمان ، وكانت جميعا لا ترغب في الاندفاع طريق إلى غير مأمون العاقبة ، يفقد فرنسا مركزها الأدبي كدولة عظمى ، إذا حنثت بالمواثيق والضمانات المأخوذة ، أو ضربت بالمحالفات والمعاهدات عرض الحائط ، ويفقدها صداقة حليفها بريطانيا ، تلك الصداقة التي بنيت عليها سياسة فرنسا منذ الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، وأكسبتها المواقف الاستعمارية في مؤتمر الجزيرة ١٩٠٧ وأيام جادث أغادير في مراكش سنة ١٩١١ وكانت العامل الأساسى لكسب حرب ١٩١٤ / ١٩١٨

٣ — أثر بريطانيا في سياسة فرنسا :

وكانت هناك دواع تملى باستبقاء تلك الصداقة من الجانب البريطانى نفسه ، فقد ظهر جلياً بعد تقدم الطيران ، وموقف إيطاليا المعادى أن أراضى الامبراطورية الفرنسية ستكون في السلم والحرب الممر الطبيعى للطائرات البريطانية ، إذا تحاشت البحر الأبيض المتوسط . لم يكن من السهل إهمال علاقات هذا الجوار ، وما تمليه المصالح المشتركة للبلدين ، وما يفرضه تعاشق حقوق الارتفاق بين الامبراطوريتين ، ولهذا لم تترك السياسة البريطانية هذه الناحية تسير طبقاً للأقدار بل مالت بقواتها وعبأت أساليبها المختلفة وعضدت الاتجاه المضاد للحركة الأولى ، وكان إن حكمت فرنسا حكومات

بقيت حريصة على تحالفة بريطانيا ، وترتب على هذا أن دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية بجانب الامبراطورية البريطانية .

ومن هنا نفهم حقيقة العرض الذى تقدم به تشرشل قبل تسليم يونيه ١٩٤٠ واقترح فيه إدماج الأمبراطوريتين فى اتحاد واحد وهو العرض الذى توهم فيه الكثيرون بأنه كان عرضاً خيالياً لا يستند إلى أساس .

٤ — الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ١٩٤٥ والمستعمرات الفرنسية .

جاءت الحرب وتتابعت شهورها الأولى . وتحملها الناس وطأتها على فرنسا ، وظهرت عيوب الأنظمة الفرنسية ، وتفكك الأحزاب الحاكمة ، وخيانة رجال الصناعة ، وقواد الجيش ، وتوالت الهزائم واضطرت فرنسا للتسليم عقب قتال لم يدم طويلا . وكان أن طرأ حادث غريب فى تاريخ العالم جاء نتيجة لإبرام عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩٤٠ وهو أن يحتل العدو بلداً أوريبا أوجزءاً منه بجيوشه وتبقى أراضي المستعمرات من غير احتلال وليس فى ذلك من عجب إذا كانت الهدنة لوقف القتال ثم تعقبها مفاوضات الصلح وينتهى الأمر بإبرامه عقب فترة قصيرة من الزمن كما حدث سنة ١٨٧٠ ، أما أن تعقد الهدنة ويتضح من شروطها استثناء الامبراطورية الفرنسية وبقاء جيوش الجمهورية للدفاع عنها ويستمر ذلك شهوراً

ثم سنوات ما دامت الحرب قائمة فأمر جديد أثار الكثير من المشاكل كلها بعدت نهاية الحرب .

فهناك فريقان يتحاربان حرباً مميتة . وهناك أمبراطورية لدولة قبلت التسليم فما هو حكم الأراضي التي سلمت . أهى دار حرب وقتال ، أم هى على الحياد ؟ لاشك فى أن القسم الفرنسى الذى يشغله العدو بجيوشه هو دار حرب .

فما هو موقف القسم غير المحتل وأهم جزء فيه تلك الأمبراطورية بأقاليمها المتسعة .

٥ — هدنة سنة ١٩٤٠ ومستعمرات فرنسا :

كنت فى بروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرتنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذى أرادت فرنسا أن تظهر به غير موجود ، ولا يمكن التمسك به نظرياً أو عملياً فقد كانت الطائرات الإيطالية والألمانية تضرب فلسطين وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية ، فيضطر للهبوط فى أراضي سوريا ولبنان ، فالتحذت السلطات الفرنسية معها فى الحوادث الأولى الإجراءات التى ينص عليها باب الحياد فى القانون الدولى ، وكان للألمان لجنة عليا فى فيسبادن ، تشرف على أمور الهدنة وتفسير شروطها . أبلغت هذه اللجنة الحكومة

الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع ألمانيا لا تجعل من فرنسا
ومستعمراتها بلداً محايداً ، وما يسرى على المستعمرات يسرى على
الأراضي المشمولة بالانتداب^(١) ، وبناء على ذلك أفرجت السلطات
السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطارين ، وسمحت
بالمرور والنزول في المطارات ، فكان من بريطانيا أن قدّتها بالقنابل
ووجهت حملتها لاحتلال أراضي سوريا ولبنان .

٦ — حالة شاذة :

هذه الحالة الشاذة لأوضاع الأمبراطورية الفرنسية طول مدة
الحرب أوجدت في أراضيها نوعاً من الحكم استفاد منه الفرنسيون
للووقوف بين الفريقين المتحاربين ، ولو أنه أدى في النهاية إلى خسارة
أسطولهم ، واحتلال الألمان واليطاليان تونس ، إلا أن هذه الحالة
لفتت أنظار الفرنسيين جميعاً للأمبراطورية وأثرها وأهميتها ، وما
ينتظر منها ، وإنها قوة المستقبل ، ودرع الشعب الفرنسي ، وغير
ذلك ، مما كانت تردده الصحف وتذيعه الأنباء المختلفة من
محطات اللاسلكي .

انقسمت فرنسا إلى قسمين : حكومة فيشي وحركة الجنرال
ديجول . واتفق كلاهما على أمر واحد وهو الاحتفاظ بوحدة
الأمبراطورية ، وعدم التفريط في أي جزء منها ، وترجع الأخطاء

(١) أي أراضي سوريا ولبنان

وأعمال العنف التي ارتكبتها تمثلو فرنسا في القطرين الشقيقين سوريا ولبنان إلى تمكن هذه الفكرة منهم ، تمسكنا أعمامهم عن تلمس الحقائق ومواجهة تطور العالم الجديد .

وأغرب من ذلك أن الحلفاء حينما وجهوا حملتهم إلى شمال أفريقيا قام الكتاب الفرنسيون بحملة قلبية في أنحاء العالم ، تقول : إن الأمبراطورية وشعوبها قد قامت تشد أزر الجنرال ديغول ، وأنها سارت تحت لوائه لإنقاذ أراضي الوطن المحتلة ، واتخذوا هذه هذه الدعاية دليلا على نفوذ فرنسا وقدرتها الاستعمارية . بل من هنا أخذوا ينادون بما صمموا عليه من إدخال سياسة الاتحاد الفرنسي وفرضها بقولهم : إن المستعمرات قد حلت عبء القتال عن الوطن الأوربي المحتل ، فهي إذن ساهمت في تحريره ومن حقها أن تندمج فيه وتكون وحدة معه ، وتنقل هنا ما كتبه بول أميل قيار « لأول مرة سلم الوطن الأم وبقيت فرنسا تحارب في مستعمراتها . »

٧- لماذا لم تحتل المانيا الأمبراطورية الفرنسية :

إن السياسة التي أملت على المانيا ترك الأمبراطورية الفرنسية تحت إشراف فرنسا بعد تسليمها لا تزال غامضة ، بل هي إحدى المعميات التي سيتسائل عنها مؤرخو الحرب طويلا ، فقد تكون

For la première fois la Mèrepatrie a capitulé , mais la France a continué a combattre dans ses colonies ,,

هناك عوامل عسكرية أو سياسية فرضت هذه السياسة ، ومن المحقق أن هناك مفاوضات وأشياء لا يزال العالم يحلمها تماما .

فمن قائل أن التسليم قد تم على يد رجال يؤمنون بعظمة فرنسا إذا تخلصت من انظمتها الدستورية ، واتجهت انجها فاشيا ، فمن الطبيعي تشجيع هذه الحركة وإعطاء هؤلاء الناس بعض النساھل ، بترك المستعمرات لهم ، ومن قائل أن الغرض الأساسي الذي رمى إليه هتلر هو أن يجعل الإمبراطورية الفرنسية يوما ما في صفه أمام الإمبراطورية البريطانية في إفريقيا وذلك لأن :

٨ — لفرنسا سياسة أوربية وللمستعمرات سياسة إمبراطورية :

يقول أصحاب هذا الرأي أنه إذا كان لفرنسا سياسة في القارة الأوروبية تعتمد على الأمن والضمان ، وهي تحتم التحالف مع بريطانيا وغيرها فإن الإمبراطورية بحكم موقعها الجغرافي ونفوذها وحاجاتها الاقتصادية سياستها الخاصة بها .

ويظهر ذلك جليا في أن الفرنسي في القارة الأوروبية يعالج المشاكل بروح تختلف عن روح الفرنسي بالمستعمرات الذي يفكر بالأسلوب الأفريقي الاستعماري وينظر إلى عظمة فرنسا في إمبراطوريتها ، نظرة بعيدة عن تطور السياسة الأوروبية وما تفرضه من محالقات وصدقات .

فإذا تركنا جانبا المستعمرات البعيدة مثل مدغشقر والهند الصينية تبدو الامبراطورية الفرنسية لعقول هؤلاء كوحدة جغرافية لها أهمية كبرى، وهى فى نظرهم كائن حى، له ما لفرنسا من مشا كل متعلقة بالأمن والحماية والجيش والبحرية .

وقد تنفق السياسستان وقد تختلفان فى الشؤون الخارجية . أما فى الشؤون الداخلية فتد ظهر أثر الرجال الفرنسيين المقيمين بالمستعمرات فى محاربة كل إصلاح يرمى إلى إشراك الوطنيين فى الحكم^(١) بل فرضوا إرادتهم واجبروا الحكومة المركزية على تغيير سياستها مرارا ، ولذلك توهم المختصون بشؤون الاستعمار أن لا مخرج لهم من هذا التعارض سوى سياسة الاتحاد ، التى تجعل من فرنسا والامبراطورية كتلة واحدة فى الخارج والداخل لها سياسة واحدة .

وكان من رأى الذين لمسوا هذا النزاع القائم أن المشاكل الإقليمية والحربية فى سيرها وتطورها تواجه فى النهاية مصالح الامبراطورية البريطانية فى إفريقيا وأكبر ضربة لمدم التحالف الفرنسى البريطانى تأتى من تشجيع فرنسا للأخذ بسياسة امبراطوريتها ، فى الأمور الخارجية وبنوا نظريتهم على ما يأتى :

(١) لا يزال هذا النفوذ قائما وهو يعطل ويقضى على كل سياسة تقارب نحو انباء المغرب

٩ - المتناقضات القائمة بين امبراطوريتين عالميتين

فقالوا ان سياسة الوفاق والصدقة سهلة وتبدو ضرورية في أوروبا ، ولكنها صعبة وغير محتملة في افريقية ، أو إذا سار التحالف بانسجام هنا فإنه لايسير أشواطا بعيدة في إفريقيا ، من غير أن تبرز المتناقضات وهي الأمور التي تطور الى مشاكل أزمات ، فيستعصى حلها ، لأن مردها إما إلى السياسات العليا أو إلى القواعد الثابتة لطبائع الأشياء ، وعلى هذا الضوء تبدو حوادث سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ ومشاكل بريطانيا في طرابلس الغرب ، وبرقة في الوقت الحاضر ، وتعذر إيجاد حل لها .

١٠ - أمل ألمانيا في استغلال التنافس بين الدولتين

كان الألمان على الإمام تام بالحالة النفسية والعسكرية في الجيش الفرنسي ، وبما يمكن أن تؤديه الفرق المكونة من الجنود الافريقية وعلى يقين من طاقة هذه الشعوب المستعبدة ومقدار صلاحيتها للحروب الحديثة ولذلك أبقوا على وحدة الامبراطورية الفرنسية وتركواها بيد الفرنسيين احتملوا بقاءها لأنهم توهموا ان التنافس بين البريطانيين والفرنسيين قد ينقلب إلى عداو وقد مرت حوادث كانت نتيجة التصادم والقتال ولكن الامبراطورية الفرنسية لم تتحرك ، بل إن القتال الذي نشب في سوريا ولبنان انحصر هناك

(١) حررت بريطانيا اراضي سوريا ولبنان وهي تحاول إيجاد حكومة في برقة وطرابلس فنقاومها فرنسا . هذه المتناقضات مما يتعذر الاتفاق عليها

أما من الناحية الفرنسية فقد تمكن الأمل من القواد والساسة
الدرجة أنهم توهموا أن لديهم القوة الكافية للدفاع عن الامبراطورية
إذا هوجمت وحشدوا وحداتهم البحرية في شمال افريقية أملا في
الخروج إلى السلم بالسيادة على البحر وحدود المستعمرات كما كانت
قبل الحرب بل كانوا يتبجحون بأنه إذا لزم الأمر أن يقبلوا التضحية
عند إقرار السلم مع المانيا فلتكن التضحية من الأراضى الأوروبية
إذا ضمنوا المحافظة على وحدة أملاكهم الافريقية التى هى المدى
الحوى التاريخى للشعب الفرنسى وهو الزم لهم من مقاطعات الشمال .

ومن الغريب أن هذا الأمل الألمانى وهذا المنطق الفرنسى
ترك شمال افريقية فى حالة سهلت للحلفاء احتلالها واتخاذها بمرافئها
لجمع قواتهم التى زحفت الى قلب اوربا فكان أن ساهمت الامبراطورية
الفرنسية فى تحرير اوربا بل فى تحرير العالم ولكن كبقعة متسعة
من الأرض استعملت كمسرح للحوادث والمعارك كإى بقعة من
بقاع الشرق الأدنى .

١١ — الحلفاء يسيطرون على أملاك فرنسا ثم يعيدونها إليها

تمزق السور الفولاذى لأول مرة عند دخول الحلفاء وقواتهم
أراضى شمال افريقية فرأى اهل مراكش وتونس والجزائر جنودا
من عناصر اخرى غير فرنسية ولا بد انهم لمسوا وعانوا اشياء
جديدة ولما سكن البلاد التى خضعت لسنوات عديدة لأعمال العنف

والشريد كانت تتمخض بانبعاث جديد ووثبة شاملة ولم تكن حملة الحلفاء لتخلق هذا الوعي القائم لولا أن لهذه الشعوب من الشخصية والتاريخ ما يجعلها تحس وتشعر بالرسالة التي تحملها للعالم وجاءت حملة الحلفاء لهذه الأرض بأساطين العالم وكانت مقر مؤتمرات وعرف الناس جميعاً أن أراضى تونس والجزائر مرأش أصبحت وديعة في يد الحلفاء وقد أعيدت لفرنسا بعد أن تعهد رجالها لروزفلت أن تسير هذه البقاع في ركب الحضارة نحو الحرية وتقدير الصبر كغيرها من بقاع الدنيا التي يسكنها الإنسان لا الحيوان

(اعود الى الوراء ام عصر جديد) هذه كلمة الاستاذ اسماعيل مظهر حينما عرض الى مشروع الاتحاد الفرنسي ونحن نتفق معه في صيحته ونقول

ان الخطر الذي يبدو لنا هو ان توفق فرنسا في اقناع العالم ان الاتحاد الفرنسي هو مشروع انساني يدعو الى رفع مستوى شعوب الامبراطورية ويعد تنفيذه تحقيقاً لما وعدوا به روزفلت في اجتماع الدار البيضاء وانه مرحلة في طريق الرقي الاجتماعي كما تعهدوا. (١) ولكن فكرة الاتحاد قديمة وسنعرض لها في الجزء الاخير من هذا البحث ونبرهن انها اخطر بكثير مما تتصور وانها ضربة موجهة لاستقلال الشعوب وحريتها ومستقبلها وانها اخطر طعنة يوجهها الاستعمار الأوربي في افريقيا موطن الشعوب المظلومة .

(١) تبدلت الأوضاع في السنوات الاخيره وحدث ما كنا نخشاه .

القسم الثالث

في طريق الاتحاد الجبرى

١ — إن العالم الإسلامى فى يقظته وفى كفاحه ضد الاستعمار الانجلى سكسونى والأوروبى والصهيونى يواجه ثلاث هيئات اتحادية! الاتحاد السوفيتى فى الشمال ، والاتحاد الفرنسى فى المغرب ، والاتحاد الهند وكى فى الهند . وكل اتحاد منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية ^(١) يصبغها بصبغة التحرر ^(٢) ويريد كل منها أن يقنع العالم أن هذا الاتحاد جاء وليد إرادة شعبية ، وأنه فى مصلحة هذه الأمم وفى الهند يأخذ الاتحاد شكل حركة قومية كبرى ، ولو كان الأمر قاصرا على المناطق التى يسود فيها الروس والفرنسيون والهندوس لما أثار ذلك اعتراض أحد من الناس .

٢ — ولكن الباحث المدقق لا تغريه الألفاظ والمظاهر إذ يتبين له أن كلا منها ينتزع أقطارا شاسعة ، ويحاول أن يضم أمما إسلامية ،

Progressiste (1)

D' Emancipation (2)

لا تمت بصلة إلى الاتحاد الذى يفرض نفسه فرضا عليها ، ولذلك لا تلبث أن تنكشف حقيقة هذه الأنظمة الاتحادية ، حينما يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، إذ تدولنا هذه الأنظمة فى ثوب قوات رجعية ^(١) تعسفية ^(٢) لا تمنح للمسلمين حريتهم وحقهم فى تقرير مصيرهم ، بل تجعل للتحكم والسيطرة والاستغلال الاقتصادى شكلا جديدا براقالا ينتزبه إلا الواهمون . فالاتحاد الفرنسى يحاول بقوة التشريع ضم أراضى شمال أفريقية وسكانها ، وهم أكثر من عشرين مليونا ، لهم تاريخهم وثقافتهم وشخصيتهم ، دون أن يسمح لهم بأبداء رأى فى هذا الاتحاد . والاتحاد السوفيتى يضم أكثر من أربعين مليونا من المسلمين الآسيويين لا يسمع لهم صوت ، ولا يسمح لهم بالاتصال بالعالم الخارجى . والاتحاد الهندى يحارب كيان دولة الباكستان الإسلامية ويحاول القضاء عليها وابداء الاقليات الإسلامية او أضعافها .

٣- ولا يمكن للعرب فى إفريقيا والمسلمين فى آسيا قبول وضع من الأوضاع يجعل منهم أقلية فى بقعة من بقاع الأرض ، لأن تجارب الماضى كانت شديدة الوقع عليهم ولذلك فهم لا يسلمون للأقدار أن تتحكم فيهم مرة أخرى ثم هم أصحاب مجد وتاريخ وصوله على

Rétrograde (1)

Arbitraire (2)

هذا الكوكب الأرضي ، وهو تاريخ حافل بأيام العراق والكفاح والنصر والهزيمة ، وهو في قوته وبروزه وأثره لا يمكن أن يقارن به تاريخ أى أمة من أمم الأرض مهما علا كعبها في الحضارة . وقد ألقى علينا هذا الماضي درساً قاسياً لا يمكن أن ننساه ، فنحن قد قُتدنا ملايين من العرب في أسبانيا ، وجزائر صقلية ، وسردينيا ، وكريت ، ومالطة كانوا عرباً دخلوا هذا البلاد واستوطنوها ؛ ثم زالت أيامهم ، فأدجوا بالسيف في جنسيات وأديان أخرى ، ولا تزال دماء العروبة في عروقهم إلى اليوم وهناك ملايين من المسلمين كانوا سادة في القرم ، ورومانيا ، والبلقان ، فأين هم اليوم ؟ إنهم يوم أن أصبحوا أقلية أفناهم الظلم والاستبداد .^(١)

٤ - ولهذا فكل اتحاد يفرض بالقوة على أقطار المغرب وشعوبه العربية ويحول بينهم وبين جامعتهم هو حركة استعمارية رجعية تعسفية تستهدف إفناء العروبة والإسلام ، والوقوف أمام نهضة الشعوب العربية في مراکش وتونس والجزائر وأضعافها كقوة فعالة في تاريخ العالم ، ولذا وجب على كل فرد منا أن يفهمها على حقيقتها ، وأن يشعر بالأخطار التي تهددنا من هذه الناحية ، وأن نحشد كل مالدينا من القوى الروحية والعقلية للوقوف أمامها حتى يشعر العالم أجمع أنه ليس في عز منا نحن معاشر الأمم الإسلامية والعربية أن نفنى

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين التي لا تعادلها غير نكبة الأندلس

بهذه السهولة من الأرض فتذهب ريجنا لدى الصدمة الأولى .
 ه — وقد عرضنا في القسمين المتقدمين لمصاعب الاستعمار الفرنسي ،
 ولمسنا تأخره عن ملاحقة العالم ، وكشفنا عن إفلاس
 فرنسا كدولة حاكمة وقلنا : إن هذه الأمور جهر بها ككتاب
 الغرب ، وسلم بها الفرنسيون أنفسهم ، أو فريق منهم ، وكنا نقدم
 للقارئ ما يحول بنفسية الفرنسيين من آمال وسط هزائمهم ، وبعد
 أن ظهر للعيان تقصيرهم وكنا نرمي بهذا أن نضع الحقائق مجردة أمام
 القارئ ، حتى يكون على علم بأقوال الخصم ، وما يدخلها من غرور
 ووعيد ، وغايتنا من ذلك أن يفهم العالم العربي أن محاربة الاستعمار
 تستلزم الوقوف على أساليبه والألمام بطرقه ، وأن الدول الناصبة
 مهما كانت سياستها غاشمة ومع ما بين أيديها من وسائل القمع تحاول
 أن تفرغ هذه السياسة في قالب يقبله العقل ويسلم به ، فعلى الذين
 نصبوا أنفسهم للجهاد أن تتسع صدورهم لأقوال الخصم ، وأن
 يروضوا أنفسهم على الحقائق ، وإن كانت مرة ليتسنى لهم تحقيق
 مرسومه لأنفسهم ومبادئهم من أهداف .

٦ — والدول الاستعمارية لا تفهم ما نقررده لأنفسنا ، بل لا تسلم به
 وإنما لديها المنظمات التي توافيها بكل صغيرة وكبيرة عنا ، وهي لا تنوى
 أن تنازل عن أملاكها ومستعمراتها أو تفرط في حق من حقوقها

إلا بالقدر الذى تنتزعه الشعوب منها . وهذه الشعوب فى تقدمها نحو الوعى القومى واليقظة تؤمل فى أن تتشبع بالحقائق حتى لاتذهب جهودها وضحاياها هباء^(١)، ثم هى تروم أن تحقق لها مجداً وأن تسير فى طريق التحرر والخلاص ، وأن تعالج مشاكلها على ضوء العلم ووضع الأمور فى نصابها، فعلى المتصدرين للحركات العامة أن يهيئوا أنفسهم للقيادة ، ولا يكون ذلك بنير العلم والبحث والدرس ، وتتبع الدول الاستعمارية والكشف عن أغراضها ومراميها ، والوقوف موقف الحريص على حقوق هذه الشعوب بل موقف المتيقظ للدفاع عنها أمام الضمير العالمى .

٧ — وقف فى القرن الماضى بعض الكتاب الإنجليز ، يتحدثون عن أعباء الرجل الأبيض ومسئوليته إزاء الشعوب المحكومة ، فقالوا إنه يحمل عبئاً ثقيلاً هو قيادة هذه الشعوب نحو الحضارة والتقدم ، وفى نفس الوقت أطلق كتاب أوربا على دولة آل عثمان اسم رجل أوربا المريض ، فمن كان ينتظر بعد مضى سنوات ان تتبدل احوال السكون ، وان تصبح الأوضاع مقلوبة ، فاذا الامبراطورية الفرنسية هى الرجل المريض الذى تخشى الدول الغربية وفاته ، وإذا من أعباء الرجل الأبيض ممثلاً فى الحكومات الانجاء سكسونية بريطانيا وأمريكا حماية امبراطورية مريضة فى

(١) كما حدث لاهل فلسطين

حالة النزاع والمحافظة على وحدتها ، وأحيانا مجاملتها على حساب حرية الأمم المغلوبة على أمرها ؟

٨ — إن الأسلحة والاعداد الحربية التي تسلمتها من هذه الدول لم تستعملها في قتال الألمان ، وتحرير البلاد منهم ، وإنما وجهت الى صدور الشعوب المظلومة في مدغشقر والهند الصينية ، وهذا العناد سيستعمل يوما ضد أمم العروبة في المغرب فما الثمن الذي قبضه الرجل الأبيض ؟ أهو تحطيم السور الفولاذي حول المستعمرات امام نشاطه وفتح حدودها واعتبارها اسواقا تجارية له ؟ وما الذي كسبت فرنسا الأم الحنون أكسبت الجمد الدائم للسيطرة وأن تمر العمليات والصفقات بطريق باريس ، بدلا من أن تتجه رأسا الى أراضى المستعمرات وهل في سبيل ذلك يسلم الرجل الأبيض ببقاء فرنسا مدة أخرى في شمال إفريقيا محتفظا لنفسه بحق الرجوع مرة ثانية اليها اما لتحريرها أو للمساعدة في تهدئتها . هذا ما سنكشفه لنا الايام في المستقبل القريب .

٩ — في الوقت الذي كان رجال فيشى يفضلون فيه التضحية بأراض من فرنسا ، محافظة على وحدة املاكهم الافريقية كان الفرنسيون الأحرار يفكرون تفكيرا استعماريا من نوع آخر ، فقد عقدوا قبل نهاية الحرب مؤتمرا لهم في مدينة برازا فيل بإفريقيه ، جمع عددا

من حكام المستعمرات تبادلوا الرأي فيما بينهم ، واتخذوا قرارات بشأن سياسة المستقبل ، بعد أن استعرضوا مسائل هامة :

منها العمل على رفاهية السكان الوطنيين ، ورفع مستواهم المادى مع تحسين حالتهم الفكرية والاجتماعية ، وعرضوا المسائل التعليم ، وأثر الدين ، وتوزيع الدالة ، ثم بحثوا مسائل الحكم الذاتى ، والإدارة المباشرة ، وغير المباشرة . واتخذت قرارات سرية نحو وحدة الأمبراطورية ، والسير بها فى طريق الإتحاد الفرنسى .

١٠ — وهذه القرارات هى التى نقلوها معهم إلى الجزائر ، وأدجوها فى مشروع الدستور الجديد . فعلى الذين يدرسون هذا الإتحاد أن يرجعوا إلى بحث قرارات هذا المؤتمر الاستعمارى وأبحاثه وأهدافه ومراميه .

ان فرنسا تعرف جيداً ان مستقبل الاستعمار والقارة الافريقية مما يشغل بال منظمة هيئة الأمم المتحدة الامم وتتر من أن الاستعمارية لا تكافح عن املا كما بالـكتائب والمال والسلاح فقط بل بالعقل والمنطق والعلم اننا يجب ان ننظر الى مؤتمر برازافيل على انه محاولة فرنسية لابقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها كاملة غير ممتدة مقدمة .

القسم الرابع :

فكرة الاتحاد تواجه المصاعب

١ - فكرة الاتحاد الفرنسي قديمة ، عبر عنها جبريل هانوتو بقوله :
وحدة الامبراطورية . وحدة الإدارة والتشريع والعمل . وحدة
الشعور والارادة الحرة . ليست بالعنف والقوة والفتح ولكن
باللين والترغيب تتم الوحدة الفرنسية . وتتميز آراؤه بخطورتها على
الأمم المغلوبة ، وأثرها في نفوس الفرنسيين وسرعة تغاغلها في أوساطهم

٢ - جبريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته
في أعماله وكتابته وأقواله . فإذا هو يؤثر في جيل بأكمله من الناس
كتب كثيراً عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس ما لم يعرفوا
عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب
على الأسلوب الذي يروق له وللمستشرقين . وهو رجل دائم الانتاج
لم يترك عملاً من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطاً إلا جال

فيه وصال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتيني القائل (١) :

Homo sum Humani Nihil a me alienum puto

(إني بشر ويخيل إلى أن لاشيء فيما يتعلق بالإنسان غريب عني .)

فكان من الطبيعي والضروري أن يلفت الاستعمار الفرنسي أنظار الشيخ ولذلك كتب فيه وأطال وهو القائل في كتاب له عنوانه (من أجل الامبراطورية الفرنسية)

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ، أم ستلحق بغيرها من الأمم الغامية التي ذهبت ريحها ؟

هل ستفنى كما فنيت بيزنطة ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها ؟ إذا عاشت فرنسا بعظمتها وقوتها وأجادها وهذا مالا شك فيه (هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى مستعمراتها .

هناك تبرز شخصيتها الخالقة المبدعة وتنمو علائقها مع تلك العائلة التي جمعتها حولها . عائلة المستعمرات الفرنسية .

(١) من أطرف ماترك مفكرو العرب في هذا المعنى قول الجنيد بن محمد الجنيد الزاهد المعروف ما اخرج الله الى الناس علماً وجعل لهم اليه سبيلا الا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً

كانت صيحة وبرناجا قذف بهما هذا الشيخ الفاني فتلقفهما رجال الاستعمار قال هذه الكلمة بعد أن أمضى السنين يدرس ويبحث ويقيّد ويسجل .

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين البحث والعلم والفلسفة ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذي لا تتطرق الرحمة إلى قلبه .

كان هانوتو داهية من دهاة الفرنسيين تلبس روحه وأنفاسه في كل جهة ، دون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضعون الخطط لبلادهم مدى سنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج السير مع الأمم التي نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ، ولكن لكثرة ما قرأت عنه أراني في حل إذا وضعته في صف دوفرين السفير البريطاني في اسطانبول وملتر صاحب المشروع المشهور وكلاهما من دهاة الاستعمار البريطاني الذين وضعوا الخطط الطويلة المدى لبلادهم . ولا نزال نحن بمصر نجاهد للخروج من نطاق تقرير دوفرين من الشؤون الدستورية ونكافح للخروج من دائرة ملتر في الناحية السياسية .

ولا تعجب من تمرير ذلك . فإن الاستعمار الأوربي في نكباته ومصائبه لا يعد شيئاً بجانب قدرته على التطور ، والظهور بألوان

(١) وضع هذا التقرير قواعد الإصلاح والتوجيهات للسياسة البريطانية .

مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنسانى قام به البشر منذ الخليقة إلى اليوم بل هو دعامة المدنية الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها . بل لا نبالغ إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة الراقى لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط بين بلادهم والمستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية اليوم أشد تمسكاً بهذه الروابط من أى عهد مضى . ونرى أنها نجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتسايروها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب .

وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة لأننا لن نتغلب على الاستعمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنسانى ^(١) ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالاً أقوياء أشداء ، يدفعون عنا ويلاته بعزيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء فى الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التى نحن فيها ، إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التى نعيش فيها اليوم .

وأعود إلى هانوتو فأقول : إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسى ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه وسبقه ولكنى أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستعمار ، الذى لمسوا تقدم الدنيا ، وتذهبوا لما قد تأتى به الأيام ، فتقدموا بأراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

(١) نسبة الى الانسان لا الى الانسانية .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ كما شغله حب بلاده ، ورغبته في بقائها تتحكم على روع المستعمرات وفي رقاب أهلها ، وهو حينما يكتب وينشر آراءه وسمومه لايهمه شخصه ، وإنما يؤمن بشيء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها .

فهو يسلم بأن بقاء الجماعات متوقف على الأنظمة ^(١) التي تربطها وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية ، بل إن الأنظمة هي روح الجماعات بقدر صلاحها تصالح الجماعة ، وإذا فسدت أنهار كيان الجماعة .

ولهذا فالامبراطورية في نظر هؤلاء كائن حي ، يجب أن يعيش وينمو ، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التي تربط المستعمرات بالوطن الأم ، وإن أنظمة الحكم يجب أن تتطور مع الزمن حتى لايعتورها ويصيبها الجمود وهو علة المجتمعات والداء العضال الذي يصيب الامبراطوريات ويقضى عليها ، كما قضى على ملك روما وبيزنطة وغيرهما .

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات ، بل أخذت تحلق في العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة وتتخذ طريق التجربة والاستقراء في مختلف النواحي .

وحقيقة للعالم هي أن السيطرة الأوروبية سواء أكانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشعوبه ، واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت إلا في الجهات التي ساد فيها الإسلام ، فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسير على حذر وعلى قدر ، ولذلك تلقى الإسلام والعرب أكبر الطعنات في التاريخ ، وفي سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة ، التي انقرضت في مصر وبابل واشور وفارس ، وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطعنه على تاريخهم ووصفه للإسلام بأنه عدو للعلم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليماً وخضوعاً . وهذا ما تم في ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقارعون الإستعمار وجهاً لوجه وبقي خطر الدعوة المحمدية ماثلاً أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء ، والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبريل هانوتو الذي تولى يوماً الإمام محمد عبده دفعه عن الإسلام في كتاب له مشهور ومواقف مشهودة .

ويذكرني هذا بما قرأته في مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء الذي كتبه أنريكو انسباتو (يقف العالم الإسلامي في مواجهة أوروبا موزعاً بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم

بشدة وعنف وعناد معتمدا على وحدته الدينية وصبغته العالمية التي تعطي حركاته مظهراً ينفرد به دون غيره).

وعلى هذا رسمت الخطط لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التي قد يسود فيها وفي هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات المؤتمر برازافيل ، تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التضييق على حرية العبادة ، ومنع تغلغل الإسلام في أفريقية الوسطى ، وهذا مما يجعل للإسلام قضية سوف نعرض لها يوماً لعرضها على الضمير العالمي ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الإتحاد الفرنسي والدعوة إليه ، لو كان الأمر متعلقاً بالمستعمرات الإفريقية وحدها أما والأمر متعلق بشمال أفريقية حيث يتسود الإسلام لذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات للتغلب عليه .

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والاسماء الفرنسية وإيهام الجنود السود^(١) أن آباءهم من بلاد الغال وانهم فرنسيون دماً وروحاً وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك .

أما والإسلام والعروبة بالمرصاد ، هنا يبدو الإتحاد متردداً يسير بخطوات وثيدة ويستتير بآراء هانوتو وغيره ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء :

(أصبح للإسلام سياستان : واحدة استعمارية ، تتعلق بالمستعمرة

(١) كتب شاووش سنقالى بالجيش الفرنسى موضوعاً تاريخياً فقال « اياي

من سكان ارض الغال »

وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه في مشارق الأرض ومغاربها ، وهما يلتقيان في ناحية واحدة وهي ابعاد الأخطار ما أمكن تلك الأخطار التي يسببها للدول الاوربية وجود ملايين من المسلمين على الأرض يمثلون في افريقية خطرا لا يستهان به ، نظرا لازديادهم عاما بعد عام) في القرون الماضية فقدت فرنسا مستعمراتها ، لأن البحر كان فاصلا والمسافات بعيدة ، واليوم تحاول فرنسا فرض إرادتها على اقطار شاسعة ، فاذا الاسلام أبعد غورا من البحار والمحيطات ، وهي لم تقدر عليه ، لأنه من نور الله ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص ، رغم المصاعب التي تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة ، واتحادها ووحدتها ، لأنها شعوب اسلامية عربية قوية لا تلين .

وها قد استعرضت فرنسا انواع الاستعمار المختلفة ، وبدأ لها الاستعمار السوفييتي الروسي بلون خلاب ، وخيل اليها أنه قد قضى نهائيا على نفوذ الاسلام في ربوع اسيا الوسطى ، وفي هذا خطأ كبير ، فأرادت أن تستعين بأساليه في هذه الناحية وفي بعض النواحي الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا .

[وسنعرض بعض قليل للاتحادين في أول الفصل التالي] .

القسم الخامس

ما بين الاتحادين الفرنسي والسوفييتي من تشابه

ما كنت أعتقد حينما كتبت الكلمة الثالثة عن الاستعمار الفرنسي والتي أشرت فيها إلى ثلاث هيئات اتحادية تقف أمام الأمم الإسلامية وحربتها أن تبرز المتناقضات بهذه السرعة فقد وضعت الاتحاد الهندوكي بجوار الاتحاد الفرنسي والاتحاد السوفييتي وقلت عنها أن كلا منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية يصبغها بصبغة التحرر، ويريد أن يقنع الضمير العالمي أن الاتحاد هو وليد إرادة شعبية، وأنه من مصلحة الأمم والشعوب الداخلة فيه، ويعلم القائمون بأمر كل اتحاد منها أن هذا بعيد عن الحقيقة بعداً تاماً، ولذلك سيكون كفاح الأمم الإسلامية في طريق الاستقلال والتخلص من هذه السيطرة الاتحادية المفروضة عليهم شديداً في الهند والمغرب، قاسياً جداً في أواسط آسيا، ولكن مؤمن وواثق باننا ستغلب

لا لأن الحق معنا وكفى ، بل لأن قوانين السكون الملازمة لطبيعة الأشياء وتجارب التاريخ معنا ، وستذهب قوات الطغيان التي تستعبد المسلمين أو تحاول ذلك هباء منثورا ، وتمدك صروح بنيت على تضليل الناس .

ومن قبيل هذه الثورة القائمة عاينا البرقية التي جاءت بأن البنديت نهرو يحذر الأمم العربية ويقول (إننا لا نعترف باستقلال أية دولة تقام في الهند وسنعتبر الاعتراف من أية دولة أجنبية بهذا الاستقلال عملا لا ينطوى على الصداقة)^(١)

وفي بعض ماورد بالجزائرية المصرية مقال عنوانه (الباكستان خير أم شر) ويقول كاتبتها أن استقلال المسلمين في الهند يتعارض مع العالمية التي هي من مظاهر السكون ونحن لا نعارض هذه العالمية ، ولكننا نفرض استقلال البلاد الإسلامية كشرط أساسي للتعاون الإقليمي ثم التعاون العالمي والا تعرضت الجماعات الإسلامية للزوال وضاعت شخصيتها وانهد كيانها .

وأعود إلى فرنسا وإمبراطوريتها وما تنويه من فرض الاتحاد على الشعوب العربية والإسلامية بعد أن رأينا رجال الفكر يسبقون التاريخ في هذه الناحية ويرسمون خطط السيطرة والغلبة ، فقد ذكرنا فيما تقدم إشارة عن مؤتمر برازافيل الاستعماري الذي عقد بأفريقية عام ١٩٤٤ وجمع أساطين الاستعمار ودهائه ، واستعرض

(١) انتهت أزمة الهند بالاعتراف باستقلال الباكستان ، ولكن الولايات التي نزع منها قد جعلت كيان الباكستان ضعيفا والمستقبل محفوف بالآخطار .

برامج المستقبل ، وأشار بتأكيد سياسة الاتحاد بين فرنسا ، وما تملكه من الأراضي الواسعة في افريقية وآسيا و صهرها في كتلة واحدة ويهمننا أن نتتبع المسائل العامة التي دارت المناقشات حولها ، فقد برزت هناك فكرتان : فكرة التعاون ، وفكرة الاندماج ، ولكل من الفكرتين أنصار وخصوم .

ومعنى التعاون إعطاء الأمم أو الاقاليم شيئاً من الحرية والحكم الذاتي بالتدريج ، ثم دعوتها إلى التعاون مع الدولة صاحبة السيادة في نطاق اقتصادي ، كما هو الحال في بعض المستعمرات البريطانية ، ومعنى الاندماج أن تفرض على الشعوب المحكومة أنواع من الارهاب والترغيب ، تنتهي إلى إيجاد شعور يقول : بأن مصلحة المجموع أن يندمج مع الأمة الحاكمة في جنسية واحدة .

ويقول خصوم التعاون : إنه في النهاية يؤدي مع الزمن إلى حياة الدومنيون الاستقلالية ، وهذا لا يتفق مع المنطق الفرنسي الذي يميل الى المركزية ، ولا يسلم بتوزيع السلطات لانه في النهاية يعرض الكيان الامبراطوري إلى الانهيار .

ويقول منتقدو الاندماج : اذا سرنا خطوات كبيرة في سبيل ذلك وتكلم خمسون مليوناً لغتنا ، واخذوا بثقافتنا ودخلوا مجالسنا النيابية ، وحصلوا على حقوق المواطنين ، وضعنا مستقبلنا بين أيدي ناخبين أجانب من

شعوب ملونة منحلة ، وقد تغمرنا موجات فسكرية وثورية لا نقدر على كبحها ، أو قد تتحالف هذه العناصر مع عوامل الهدم الفرنسية وتعمل مع احزاب اليسار ، لتفرض ارادتها : حينئذ يفات الزمام من الأيدي الفرنسية الرشيدة العاقلة ، وتعرض حياة الأمة إلى اخطار جسيمة .

خرج مؤتمر برازافيل إلى الاخذ بل وسط ، يجمع بين التعاون والادماج ، فسياسة التعليم بنيت على إدماج الشعوب في الثقافة الفرنسية . إذن يجب أن تشتد هذه السياسة التعليمية ، وان يكون هدفها اضعاف اللغات القومية ، وخصوصا اللغة العربية وفي المستعمرات الافريقية تقرر منع التبشير المسيحي باللغات القومية ، وجعل تدريس قواعد الدين الكاثوليكي باللغة الفرنسية .

وان أطيل على القارئ سرد بقية القرارات ، فهي مطبوعة . واذا ماذا يهمنا من أمر البلديات ، وطريقة انتخاب المجالس العامة بالمستعمرات ، وزيادة سلطة الحكام ، والتصديق على الميزانيات والقروض - مادامت السيطرة المركزية لوزير المستعمرات قائمة . اذا كانت سياسة المؤتمر ترمى الى تأكيد السياسة الفرنسية وتثبيت الرأي النهائي للجاناليات الأوربية في مستقبل المستعمرة ، وجعل الكلمة العليا للسكولون الفرنسي ، باعتباره ممثلا للأمة الحاكمة صاحبة الأمر والنهي والسيادة .

فالسّياسة التّعليميّة اتّجهت اتّجاهها إدماجيا ، مسترشدة بالنّظم
الروسية ، التي تستعين بالمدرسة على إخراج جيل من النّاس ، يؤمن
بالثورة وتعاليمها . كذلك المعلم الفرنسي من واجبه أن يفرض لغته ،
ليخرج طائفة تفكر تفكيراً فرنسياً ، وتنتطق بلسان فرنسا ،
وتؤمن بعظمة وأهميّة الحصول على الجنسيّة الفرنسيّة والافتخار
بأن الفرد الأسود هو فرنسيّ أسود وأن اللون لا يمنع أنه
من سلالة الغالين سكان فرنسا الأصليين وهذا نهاية ما يصل
إليه الغرور الاستعماري .

ولكن سياسة الإدماج تواجه الشعوب الإسلاميّة ، والإسلام
والعروبة في عالم الاستعمار كما قررنا وباء يصعب مواجته ، ويستعصى
التخلص منه ، فهو راسخ في عقول ملايين من النّاس ، وهو كالنار
تحت الرماد . وقد أمضى الاستعمار مع الإسلام عشرات السنين
وكما خيل إلى المستعمرين أنهم قضوا على مشاكه وتغلبوا عليه برزت
لهم الأدلة على أنهم مازالوا بعيدين عن زمن القضاء على حيويته ،
وأنهم مع ما أوتوا من قوة البطش وسعة السلطان أعجز من أن يكسبوا
أمامه المعركة النهائيّة والقول الفصل .

من هنا فكرت فرنسا في إيجاد مركز دائم للشّئون الإسلاميّة
بمدينة الجزائر ، وأطلقت على هذه الإدارة وزارة تنسيق الشّئون

الاسلامية، ولنلاحظ أن الاصطلاح الفرنسي يعتبر المسلمين كطائفة مهمما كان عددهم كبيرا. أى أن هؤلاء الناس لا يكونون أمة من الأمم، وليس لهم وطن ولا رابطة مع الأرض التي يعيشون عليها، فهم «رعايانا المساكين»؛ وهم مسلمون وكفى، وهذا رأيهم وهو رأى خطير فى نظرى.

وتولى هذا المنصب فى الجزائر صديقنا الجنرال كاترو وهو الذى عرفناه فى سوريا ولبنان مندوبا ساميا، ولمسنا فى شخصه اجتماع القائد والسياسى معا، وبرهن على أنه صاحب عزيمة ودهاء، وفكرة ومقدرة، وهو يتظاهر بأنه صديق للإسلام والمسلمين، وإنه يعطف على أمانيتهم المشروعة، وأنه يدفع الظلم عنهم، وهو يمثل فى الوقت الحاضر فرنسا بموسكو عاصمة السوفييت، قلت دائماً إن رجاله مزاياء كاترو، وإمامه، وفهمه لشئون الدنيا، ودرايته بمشا كل الاستعمار لا يترك الوقت يمر أمامه من غير أن يشغله يبحث شئون الاسلام فى روسيا... نعم قد يكون اختياره كسفير لبلاده من قبيل الابعاد السياسى فى وقت ترفض العقلية الفرنسية وضع العسكريين فى الصف الأول، ولكن كاتروله منزلته ورأيه وشخصيته، وللاتحاد السوفييتى سياسة مرسومة تجاه المسلمين. حقيقة أن الناس قلما يتعرضون لها ولكن أعين الاستعمار لا تغفل عنها لأن روسيا فى توسعها،

وانتشار نفوذها واجهت المسلمين كما واجهت فرنسا الاسلام من قبل ومن بعد .

ولكن تجارب روسيا مع المسلمين غير تجارب فرنسا . فالأخيرة كانت تحيا تحت سلطان الحروب الصليبية وتقاليدها ولا تزال إلى اليوم ، وهى حروب اشترك فيها غيرها من الشعوب ، وكانت نهايتها محزنة ، لأن السيوف التى انتصرت هى سيوف المسلمين ، ومع هذا تقلب السكتب الفرنسية الحقائق ، وتجعل من الهزائم الفرنسية مفخرة للشعب ودوافع للعمل والجهاد ضد المسلمين .

أما روسيا فقد عاشت قرونا محكومة بالمسلمين ولاقت منهم شدة وعنتا وبين الكنيسة البيزنطية والمسلمين عراق طويل . (١) ولم تبدأ حملات روسيا بجد ضد الأراضى التى يسكنها المسلمون إلا فى عهد كاترين الثانية ، إذ دخلت أقاليم إسلامية كبيرة تحت حكمها ، وكانت أساليب الحكم الروسية سهلة واضحة : ذبح المسلمين ، وتشتيتهم ، أو تركهم إذا قبلوا الدخول فى المسيحية . ولقد دخل ملايين منهم فى الجندية والديانة ومن بقى محتفظا بديانته سرا أعلن إسلامه بعد ثورتى ١٩٠٥ و ١٩١٧ .

(١) كانت الحروب الأولى ضد خانات قازان وتار الفولجا للتخلص من سيطرة المسلمين الذين كانت لهم السيادة على الأقاليم الروسية .

ولما اتسع ملك الروس في آسيا الوسطى وقفقاسيا أخذوا يفكرون في إيجاد سياسة إسلامية ، وأخذوا يقلدون الدول الاستعمارية الغربية ، ولكن ثورة البلاشفة قضت على القيصرية ، وأعلنت حقوق الشعوب وحريتها ، وسمحت للمسلمين بإقامة شعائرهم الدينية بعد أن كانوا محرومين منها في بعض المناطق ثم عادت فأعلنت الحرب على الأديان كلها ، وكان من الطبيعي أن يحارب الاسلام كغيره ، وهو قوة عالمية ثورية ، شأنه شأن الحركة الشيوعية إذ يحمل كل منهما لواء العالمية ، وتغنى فيه القوميات والعنصريات والطبقات . فالشيوعية تحاول دائما التغلب على الإسلام في الجهات التي ساد فيها ولها في هذا المضمار أساليبها الخاصة التي جاءت نتيجة للتجارب التي بدأها لينين في سياسة التقارب مع الأمم المغلوبة في ١٩٢٠ و ١٩٢٢ ثم انتهت إلى تحطيم الجمهوريات الوطنية ، وفرض الأنظمة الشيوعية والدخول في سياسة اتحادية ، تخضع أراضي السوفييت كلها لسلطة موسكو المباشرة . أي إفناء . حرية الشعوب الإسلامية . سواء في آسيا أوففقاسيا أو القرم

وكان أن واجه الشيوعيون مشكلة حكم امبراطورية استعمارية تحت نظام جمهوري اشتراكي ، وخطوا في السنوات الماضية خطوات جبارة في طريق الاستغلال واستثمار أراضي البلاد الإسلامية باسم جديد ، وأنظمة جديدة ، وفرنسا من ناحيتها تحكم ملايين الشعوب

الملونة ، والامم الاسلامية . وتحاول أن تحتفظ بسيادة الجمهورية المركزية على أقاليم شاسعة فهما تتفقان في معالجة مشاكل متشابهة تلتقى عندهدف واحد، هو المحافظة على وحدة امبراطورية استعمارية استغلالية بأى ثمن.

وإذا سرنا في المقارنة من الناحية الداخلية نجد أن فرنسا تحكم بلادا لها شخصيه أو شبه سيادة : مثل مراکش ، وتونس ، وبعض أقاليم الهند الصينية ، ولديها بقاع يحكمها أمراء وسلاطين بأفريقيه . اما الاتحاد السوفيتي فبعد أن حطّم ممالك بخارى وخوارزم^(١) ، وحكم الاقطاعيين الذين عاشوا تحت ظلال القيصرية عاد أنشأ جمهوريات ذات سيادة اسمية في اذربيجان وتركستان وازبكستان وتاجيكستان والقرغيز ، واعطى لاقاليم أخرى نظام الحكم الذاتي مثل الداغستان وبشكيريا وغيرها .

وهذه الأقاليم التي عمدناها إسلامية ، وأهلها مسلمون ومعظم أقاليم الامبراطورية الفرنسية أو اهمها من بلاد الاسلام ويسكنها المسلمون ، ولذلك يحلو لرجال فرنسا أن يقولوا عن بلادهم : إنها دولة اسلامية كبرى ، والسوفييت وان كانوا لا يقرون الأديان فانهم مع ذلك على اتفاق مع الاستعمار الفرنسي ، في مواجهة المسألة

(١) اماره خيوة في عصر القياصرة الروس

الاسلامية : باعتبارها معضلة تتطلب الحلول ، ولها مشاكلها ومتاعبها ومضاعفاتها ، ولذلك تحتاج إلى دراسة وبحث ، ولهذه سياسة خاصة بها . أى أن للاسلام سياسة مرسومة في كل من روسيا وفرنسا ترمى كل منهما إلى أهداف مختلفة ، ولكنهما يلتقيان في نهاية واحدة هي أضعاف الاسلام وتقويض اركانه والحيولة دون قيامه بدور تاريخي وكلاهما يسير على نهج الادماج ، ونقصد به صهر القوميات في كتلة واحدة ، ولكن الاتحاد يسير على نمط خاص به فهو يفرض اللغة الروسية ، مع الفكرة الاشتراكية ، والفلسفة الماركسية ، ويقدمها في قالب واحد . وسار في هذا اشواطا حتى في الجمهوريات المسيحية ، لأن حكومة الاتحاد قررت تشتيت مجلس السوفيت المحلي في بلاد السكرج (جورجيا) لأنه عارض سياسة الاتحاد ، وقرر التمسك باللغة القومية ، وجعل لها المقام الأول في التعليم وللروسية المقام الثاني ، ثم يتفق مع السياسة الفرنسية في احياء لغات اندثرت ، وثقافات اندرست ، حين يهاجم الوحدة الاسلامية في آسيا الوسطى ، باسم الفن والتاريخ والثقافة ^(١) المحلية ويشبه هذا النشاط سياسة فرنسا في التفرقة بين العرب والبربر

(١) من اكبر وسائل محاربة القومية العربية والاسلام تشجيع استعمال اللغة العامية في الاذاعة والصحف والاغاني

حتى تظهر ثقافات متباينة في كل رقعة ، ويفقد الاسلام تلك الوحدة التي اشتهر بها وعرفت عنه .

فلهذا وغيره يبدو الاتحاد السوفيتي في أنظمتة وكيانه كوحدة استعمارية ، تسيطر على أقطار المسلمين ، وتفرض عليهم حكما خاصا كالمودج صالح لفرنسا ، يصح أن يحتذى به في أشياء . والفرنسيون أذكاء وأهل منطق يعرفون تماما أن الأنظمة والدساتير لا تبني الممالك ، وإنما القوة الدافعة هي التي تحميها . والقوة الدافعة في أراضي السوفييت هي الحزب الشيوعي ، الذي يستند على قوته الثورية ، وأنه حزب عمالي ترتكز عليه الدولة وتخضع لمشيئته ويسيرها كما يشاء .

ولا تملك فرنسا هذه القوة المتصفة بالبطش والفتك ، إذ هي لا تزال تأخذ بأنظمة الدساتير الديمقراطية ، وتعدد الأحزاب في الحكم .

وهناك مسائل أخرى تفرق عن السوفييت فيها . أهمها أنها تحترم الملكية الفردية ، وتشجع الشركات والأفراد في تولي الإنتاج الزراعي والصناعي ، بينما الاتحاد السوفيتي لا يعترف بالملكية للفرد ، وإنما يأخذ بالاشتراكية ، ويجعل حق الملكية للدولة ، أو يعترف بالملكية التعاونية . وقد يلتقى النظامان فيما يخص الملكية باراضي بعض المستعمرات . إذ يحرم التشريع الفرنسي على الأهالي

في بعض المستعمرات ملكية الأرض ويسمح بها لشركات الاستثمار
وللمستعمرين البيض. ولا نعرف مقدار حظ المسلمين في المزارع التعاونية
بالروسيا ، فقد تكون بأكملها في أيدي الروس ، فهي لا تختلف
إذن عن شركات الاستثمار الكبرى في المستعمرات الفرنسية
ولكن الثابت لدينا هو أن الأهالي المسلمين محرومون من حق الملكية في
جمهورياتهم فهم إذن كأهل المستعمرات الفرنسية السود في هذه الناحية
ولم يكن تطبيق النظام الاشتراكي أو التعاوني لصالحهم بل لتقوية
الجالبات الروسية وزيادة افقارهم وضرب الذلة والاملاق عليهم
بعد تحطيم الثورات التي قاموا بها (١) .

هذه نظرات أولية تمكننا من تلمس بعض ما يقال له فوارق ،
وبعض ما يلتقي النظامان الاستعماريان فيه من نواح . ولا نقدم
جديداً حينما يتعلق الأمر بالأنظمة إذ هي الأسس التي يقوم عليها
الاتحاد . وفرنسا تقدر الفوارق والاتجاهات في الاتحاد السوفييتي ،
ولكنها تعجب من الأنظمة كدعامة للوحدة . فالدستور السوفييتي يقول :
بأن الدولة اتحادية تقوم على أساس الاتحاد الاختياري بين
الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية المتساوية في الحقوق .
وهذا نص مشجع لأن تأخذ به فرنسا في نظامها الجديد خصوصا
وأن معنى الاختيار غير معلوم لدى الروس .

(١) لا يتسع هذا البحث لشرح حال المسلمين في أنحاء بلاد السوفييت .

إذ لا يذكر العالم أن إحدى الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى جاءت إلى الاتحاد ، وانضمت إليه باختيارها ، وإنما دخلت الاتحاد بعد معارك دموية وقتال استمر طويلا ، ولذلك لن يكون هناك اختيار في الاتحاد الفرنسي كما قلنا .

وينص الدستور السوفيتي على حق تقرير المصير ، ويعترف لكل جمهورية بأنها ذات سيادة . ولكنه يقيد هذا بالمادة ١٤ من الدستور نفسه ، وفيها كل ما يهدم شخصية واستقلال وسيادة الجمهوريات المقول عنها بأنها مستقلة وذات سيادة . وهذا النص يجعل حق تقرير المصير غير موجود ، ولذلك سنراه في دستور الاتحاد الفرنسي وستتمسك به كل دولة اتحادية حينما ترمى إلى السيطرة والتحكم في مصير الأمم الإسلامية .

ومن المفيد أن نعرض هذه المادة مع بعض التفصيل ليستيقظ الغافلون بمصر . فهذه المادة تجمع طائفة من الامور الهامة الخوية لكل شعب منها ما هو سياسى وعسكرى واقتصادى ، ومنها ما هو ثقافى وتشريعى . فاذا بحثت عن الباقي من سيادة جمهوريات الاتحاد المستقلة وجدته ضئيلا بحيث لا يصح أن يقارن بالسيادة التى تتمتع بها أية ولاية داخل نظام الولايات المتحدة الأمريكية ، فاذا سلمنا بأن حكومة الاتحاد ترى أن من حقها عقد المعاهدات ، وحصر

التمثيل السياسى قىها وتسلم قضايا السلم والحرب ، وتنظيم الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، وحماية سلامة الدولة المستقلة . فان هذه المادة تضيف أشياء أخرى تجعل النشاط الاقتصادى بأكمله خارج نطاق عمل الجمهورية المستقلة وبهذا يصبح لاستقلال وهماً ولا فائدة منه إذ تخضع المشاريع الصناعية والزراعية وإدارة المصارف ووسائل النقل والمخابرات ، ونظام النقد والتأمين ، وعقد القروض وكل ما يتعلق باستثمار الأراضى واستثمار الغابات ، ومساقط المياه فى يد حكومة الاتحاد .

وعلاوة على ذلك يسلب من الجمهوريات سلطتها على كل شئون التعليم والثقافة ، ويسلبها حقها فى التشريع الداخلى الصرف ، إذ تبقى سلطة حكومة الاتحاد هى العليا فى كل ميادين المعارف والصحة ويخضع المحاكم والقوانين من مدنية وغيرها حتى قانون الجنسية وإقامة الأجانب وتنقلاتهم لحكومة الاتحاد هذا مع قرار الاتحاد بأن لكل جمهورية دستورها الخاص بها وهنا تهزأ حكومة السوفييت بالعالم حينما تقول :

أن لكل دولة من الجمهوريات المستقلة مطلق الحرية فى أن تنفصل عن الاتحاد السوفييتى .

ومن قبيل تحصيل الحاصل أن يقرر الدستور السوفييتى أنه فى

حالة التعارض بين القانون الخاص بأية جمهورية مستقلة والقانون الاتحادي وجب على الحكومة المستقلة تنفيذ قانون الاتحاد فلا توجد هيئة عليا كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية للفصل في تنازع الاختصاص أو تفسير الدستور.

من هذا نفهم ولع الفرنسيين بالاتحادية وأنهم بعد أن قلبوا أنظمة الاستعمار وأساليبه من أمريكية وبريطانية وبرتغالية وهولندية وجدوها لا تشفى غليلهم ، ووجدوا مع اختلاف الأهداف في نظام الاتحاد السوفيتي ما يصح الأخذ به ، والسير عليه إذ فيه تأكيد لسيطرتهم وابقاء لحكمهم .

ولذلك لم تخطئ النظر حينما جاهرنا بأن الأنظمة الاتحادية الفرنسية والتي في بلاد السوفييت ومايجول بخاطر بعض الهندوس من إنشاء دولة اتحادية والقضاء على حرية المسلمين بالهند ترمي كلها إلى فرض أنظمة وأسس رجعية تعسفية حينما يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، لأنها تعطي الاستغلال الاقتصادي والسيطرة والتحكم ثوبا جديدا

القسم السادس

فرنسا في مراکش

بدأ الفرنسيون تنفيذ برنامجهم الإصلاحى على مراحل فى
مراكش ، فقد نقلت إلينا الأنباء البرقية طرفا من أخبارهم ، وهى
تتلخص فى بعض تغييرات إدارية ادخلوها ذرا للرماد فى العيون
فقالوا إن الوزارة ستتألف من عشرة وزراء مراكشيين وعشرة
من الفرنسيين ، واختير مستشار فرنسى يبحث القوانين واللوائح قبل
عرضها على السلطان ، وصرح فرنسى مسئول بأن فرنسا تريد تحويل
مراكش إلى دولة ديمقراطية حديثة ، كما ترغب باخلاص فى زيادة
مسئولية المراكشيين فى حكم أنفسهم ، وهذه نواح جديدة
بالبحث والتأمل .

ولقد كنا أول من أذاع شيئا عن اجتماع الدار البيضاء الذى
حضره روزفلت وجيرو وديجول الفرنسيان ، وقلنا : إن أراضى
تونس والجزائر ومراكش كانت وديعة بيد الحلفاء ، وقد أعيدت

للسلطات الفرنسية بعد أن تعهد رجالها لرزفيلت أن تسيّر هذه البقاع في ركب الحضارة نحو الحرية، وتقرير المصير. وشيء من هذا لم يحدث ولكن تحت ستار الإصلاحات الجديدة، وتحويل مراكش إلى دولة حديثة، وزيادة مسؤولية المراكشيين في حكم أنفسهم - تقدم فرنسا للعالم المتقدمين مشروعاً استعداداً لها، له خطورته لأنه ضربة جديدة موجهة إلى استقلال مراكش، وحريتها ومستقبلها ولذلك لم نستغرب أن رفض الأحرار المراكشيين هذه السياسة وندّدوا بها، وقالوا عنها « أنها تريد أن تحتصب البقية الباقية من مظاهر وجودهم » ونحن الذين تابعوا قضية المغرب من يوم أنزل الحلفاء جنودهم، وأنصتوا طويلاً إلى أقوال قواد الحلفاء، وبعض رجال السياسة، الذين تحدثوا عن مستقبل هاتيك البلاد، وعرفوا الكثير من تحمس رجال فرنسا، وتمسكهم بوحدة امبراطوريتهم، ورفضهم الدخول في أى حديث يتصل بحرية واستقلال شعوب المغرب.

لم نتردد في أن نجهر بالقول لإخواننا أهل المغرب^(١) أن الخطر الذى يبدو لنا هو أن توفق فرنسا لا قناع العالم أن سياسة الاتحاد الفرنسى مشروع إنسانى، يدعو إلى رفع مستوى الشعوب، ويعتد

(١) نهاية القسم الثانى .

تنفيذه تحقيقا لما وعدوا به روزفلت في اجتماع الدار البيضاء ، أو أنه مرحلة في طريق الرقي الاجتماعي .

ومراکش ليست دولة في مجاهل الدنيا حتى تدرب على حكم نفسها ، وقد عاصرت القرون ، وكانت امجادها وبطولاتها مضرب الأمثال ، فهي دولة مستقلة ذات سيادة وصوله وتاريخ وشخصية ، قبل أن تعرف فرنسا شيئا من ذلك . وهي أمة موحدة قبل أن تحقق فرنسا وحدتها الإقليمية في قارة أوروبا ، ولاخواننا المراكشيين جولات في افريقية ، وفي القارة الأوربية . وبين ملوك مراکش وملوك فرنسا مكاتبات ومعاهدات قديمة ، عامل فيها كل واحد الآخر معاملة الند للند .

لهذا كله دهشنا من موقف فرنسا ورجالها بعد سنة ١٩١٢ وموقفها اليوم في سياسة المقيم العام ، التي يريد أن يفرضها على دولة قائمة ذات سيادة وشخصية دولية ، وكنا نؤمل أن تغير دروس الماضي بعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد الحرب العالمية الثانية ، شيئا من أساليبهم وعقليتهم ، ومراکش بلاد لم تفتح وإنما تعاهد سلطانها معهم ، وحالفهم على شروط معلومة فاذا هم ينتزعون البلاد انتزاعا ويصبح المقيم العام سلطانا غير متوجه له حكومة تجمع السلطات كلها بين يديه : من تنفيذ وتشريع وقضاء ، ويسيطر رجاله على الشؤون

المالية والاقتصادية والإنشائية ، ويضع يده على الجبوس والأوقاف وينتزع أملاك الدولة ، فيوزعها على المستعمرين من الفرنسيين .

ولم يقف الأمر عندهذا الحد ، بل ضربت فرنسا بالمواثيق والعهود ، التي أخذتها الدول عليها عرض الحائط ، فهي لم تحترم ما جاء باتفاق الجزيرة سنة ١٩٠٧ ولا ما جاء بالاتفاقات التي أعقبت حادث «أغادير» المشهور ، وكلها تنص على احترام سيادة سلطان مراکش ووحدة بلاده ، وبقائها بلادا مفتوحة لتجارة الدول ، وميدانا للنشاط العالمي .

وقد رأينا الأسلوب الفرنسي في حكم البلاد التي نكبت به ينتزع السلطات جميعا من أيدي الحكام الوطنيين ، فتصبح الحكومة المراكشية التي يطلق عليها اسم (المخزن) صورة لا تملك من الأمر شيئا ، وإذا بدار المقيم العام بيدها السلطات الفعلية وهو يتولاها بواسطة مستشاريه ، على الطريقة الفرنسية المباشرة ، التي رأيناها في سورية ولبنان أيام الانتداب .

تصور هذه الدار تتولى الأمن العام ، والجمارك ، والضرائب وتدير الأوقاف تفتح المدارس ، وتخلق المكتاتيب ، ويدها التشريع والبرق والبريد وتسيطر على النقد ، ووسائل المواصلات ، وتمنح الأراضي لمن تشاء ، وتوزع الثروة على شركات الاحتكار والاستثمار

هذه هي مناطق القانون العام ، أى التى يسود فيها الحكم المدنى
أما المناطق العسكرية فهى تخضع لجبروت الجيش ، وضباطه
السياسيين . فهناك يجمع القائد الفرنسى كل السلطات فى يده ، ولا
مرد لحكمه . إذ تكفى إرادته لنزع الأملاك ، وتنفيذ حكم الاعدام
والسجن ، واخلاء قرى بأكملها من السكان ، ولا يمكن مراجعة
حكمه ، أو الاعتراض عليه ، أمام سلطة مدنية ، وأهالى البلاد من
المسلمين حيارى بين براثن الاستعمار الفرنسى فى مراکش أذهم فى حالة
حرب منذ عام ١٩١٢ لا يرفع عن كاهلهم صوت الاحكام العرفية
ولا يشعرون بالراحة يوما ، تؤخذ أولادهم للحروب ، ويرسل
شبابهم الى المعتقلات والسجون

لقد آن للعالم المتمددين أن يفهم حقيقة الحال فى إفريقيا الشمالية
وحسنا فعل المجاهدون المراكشيون فى المبادرة إلى أمريكا ، وتعريف
العالم بقضيتهم ، لأنها قضية عادلة ، فهم لن يقبلوا أن يدخلوا اتحادا
فرنسيا يفرض عليهم فرضا ، وقد شرحنا أساليبهم ومراميه وأهدافه
ويؤكد سيطرة فرنسا وتدخلها فى شؤون بلادهم اجيالا من الزمن
لاتزال فى عالم الغيب أو المستقبل .

إن كفاح أهل مراکش سيكون طويلا وصعبا لا هوادة فيه ، لأن
بلادهم موطن الثروة المعدنية ، واليها تتجه أنظار الاستعمار الفرنسى
للحصول على المواد الخام من البترول والفحم والحديد وهذا الاستعمار

يفرط كما قلنا - في ولايات من فرنسا في أوروبا ولا يتنازل عن شمال إفريقيا وهو يعلم تماما أن أي تساهل أو اعتراف من جانبه باستقلال ، أو حكم ذاتي يمنح لأهل البلاد المراكشية معناه : انهيار الامبراطورية الفرنسية بأكملها في إفريقيا الشمالية .

فعلى الذين يتصدرون الحركة الإستقلالية في مراكش أن يفهموا أن العراك سيكون شديدا وقاسيا ، وعليهم أن يكتسبوا المعركة الخارجية ، وهى معركة الدعاية لقضيتهم في امريكا ، وفي بقية انحاء العالم ، عليهم أن يظهروا مساوئ الاستعمار وأضاليه ، وأن يجعلوا الدعاية قائمة في كل مكان ، وأن تمتاز بالثبات والرسوخ والهدوء والمداومة .

ففي مصر لا يكفي شعور الناس بالعطف على قضيتهم ، بل يجب إبرازها كل يوم في ثوب جديد على صفحات الجرائد والمجلات ، بل نريد أن نسمع رأيهم وصوتهم ونرى مناظر بلادهم ومساجدها وأسواقها ، ونقرأ لأدبائهم وزعمائهم كل يوم ونود أن نشاركهم أفراحهم وأيامهم ، ونسمع أغانيهم ونرتل شعرهم ، وتظهر على مطبوعاتهم صور معاهدهم ورجالهم ومظاهر الحياة عندهم .
إننا في حاجة إلى أن نتعرف على أهل المغرب جميعا لأننا في
في مصر نعد أنفسنا أقرب أهل المشرق إليهم .

لقد تلاقت النفوس قبل اليوم . وارتبطنا بهم يروابط لا تنفصم
عراها . إن في مصر أسراً بأكملها تنحدر من تلك الأصول العربية
التي جاءت من أرض المغرب .

إننا لا تطأهن نفوسنا قبل أن ينال المغرب استقلاله ويحصل
على حريته .

القسم السابع

الاعتداء على الجزائر

« ياويلاه إن المصائب والنكبات وامتحان الدهر ليست وحدها العائق الذى يعترضنا فى الحياة بل إن أعمالنا وجهودنا (١) نفسها كثيراً ما تكون حرباً علينا »

« فاوست »

ليذكر العرب جميعاً والعالم الاسلامى وسائر أمم الأرض أن فرنسا اعتدت بلا مبرر بل يسبق إصرار وترصص على حرية الأمة الجزائرية وكان ذلك بغير إعلان حرب ، ولا اخطار للدولة صاحبة السيادة ، وإنما جمعت وحشدت الجنود وأنزلتها فى يوم ١٩ يونيه سنة ١٨٣٠ عند الصباح فى مرسى سيدى فريخ حيث انسحبت قوات والى الجزائر من البرج القائم ، حقنا للدماء وإثباتا للتعدى أمام طوفان الفرق ، التى جاءت من فرنسا بمدافعها وعتادها الحربى . هذا اليوم يجب أن يبقى خالداً فى ذكريات كل فرد منا مهما كانت

(١) يرجع ضعف الامة الاسلامية الى فقدان الرجال والساسة ذوى البصيرة النافذة والاخلاص الدائم .

ثقافته ، ومهما كانت آماله . ولأهل الجزائر أن يرفعوا أيديهم
بالاحتجاج على هذا العدوان ، وإن تنصت السموات العلا إليهم ،
وتستمتع الأرض ومن عليها لشكواهم وآلامهم .

وليتخذ أبناء العروبة هذا يوم حداد . يقفون دقائق معدودة
تحية المجاهدين والمقاتلين ، الذين جادوا بأرواحهم ، دفاعا عن حريات
الأمة الجزائرية ، في كفاحها الطويل وجهادها ، وليبق هذا اليوم
الأسود قائماً بيننا حتى يصفح الله عن شعبه وأرضه ، ويرد إليهم حقه
وإلى أن تعود الحياة والنور إلى الشعب الجزائري على الثرى الذى
حمل مجاده والذى هو له وحده .

كان هذا الاحتلال نكبة كبرى على العروبة والإسلام ، لا
للحوادث التى تمنحض عنها من ضياع إستقلال تونس ومراكش ،
ولا لحوادث الكفاح والقتال والتصادم التى دامت سنوات عديدة ،
ولا لما أثاره من المعارك والمقاتل والأيام المشهورة وإنما كان محنة
إزاء ما تبينه العالم من صمت المسلمين وجهودهم وتفرق كلمتهم . لقد
كشفنا هذا العدوان الفرنسى أمام الدنيا وشعوبها ، كنا قوة تخشاها
أحداث الزمن ، فإذا نحن لا شئ . كان العالم يحسب ألف حساب
للروح التى تفيض حماسة وقوة ورفعة . تلك الروح التى أفرغتها تعاليم
الإسلام على الأفراد والجماعات والشعوب ، فإذا هذه الروح

لا وجود لها إنها قد ماتت ولم يعد لها بقاء ولم تقم لها قائمة ، ولهذا حمل أهل الجزائر عبء القتال وحدهم وكان عبئاً ثقيلاً عليهم . حقاً إنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . ولكن للطاقة البشرية حداً ، إنهم دافعوا دفاع المستميت حتى ألقوا في النهاية أسلحتهم .

هذه ناحية جديدة بالبحث والتحقيق . نقول : ماذا دهم العالم الاسلامي وأهله ؟ ماذا أصاب هذه الشعوب التي عهدناها في التاريخ زاحفة على الأخطار تتلقاها بصدور ملأها الايمان — لا تلين يوم ترجف الراجفة ولا تخضع ولا تستأمن وانما تقوم للاحداث وتقعد ؟ أين ذهبت تلك الحيوية التي كانت تتبع الرادفة بالرادفة ، وتهز بعزائم أهلها الدنيا وتواجه بصدور أهلها طوفان الحوادث ، فتعلو عليه ، والنصر من كل جانب يواتيها .

ولقد افتتحت هذا الفصل بجملة من فاوست ، قالها جوته الشاعر الالماني ، وهي تلخص حال المسلمين في افتتاح القرن الماضي إذ كانت قد خفت منذ سنوات وقرون أصوات المعارك الزاحفة وانهدت صروح الممالك القوية ، وتفككت عرا الدنيا الاسلامية حينما اطلت طلائع القرن التاسع عشر علينا ، فأصبحت المدن التي كانت عامرة أنقاضاً ، وهبط عدد المسلمين في مصر وفارس وسوريا

والمغرب ، وضعف شأن المسلمين في كل جانب ، ومنذ ابتداء القرن الثامن عشر لم يبق لهم إلا دولة آل عثمان ، التي وصلت جحافلها الى فيينا مرتين ، ثم إذا هي تواجه الهجمات المتتالية في جهة البلقان والمجر ، وتدافع ببطولة واستماته فمن كان بوسعها أن يخترق حجب الغيب قبل وقوع هذا الحدث الاعظم بثلاثة قرون ، ويجاهر المسلمين بأن مصائب القرن التاسع عشر وارزاه كانت نتيجة للأخطاء ، التي ارتكبتها أسلافهم بحروبهم وسياستهم وتفرق كلمتهم .

لم يبق من شك أن الحروب التي شنها سليم الأول على مصر وإيران أضعفت الكيان الاسلامي ، كقوة فعالة ، ولا سيما إذا حللنا على ضوء المنطق الاسباب التي دفعته اليها ، فقد كانت مشاكلا مع الدولتين من الأمور التي كان بوسعها حسمها ، دون أن يتورط في معارك مع دول اسلامية هي بطبيعتها حليفة له ، فكان من أثر حروبه ان زالت من الوجود دولة مصر ، التي كسبت الحروب الصليبية في مواجهة أوروبا ، وناهيك بذلك مفخرة لها .

إن الضربة التي وجهت إلى مصر في سنة ٩٢٣ هـ كانت ضربة ضد العروبة والاسلام ، إذ كان من أثرها أن انهار ركن من دعائم دنيا المسلمين ، كان له المقام الأول في الدفاع عن أراضيهم وصد أعدائهم ، وسرعان ما ظهرت للعيان فداحة هذا الرزء حينما لم يمض

نصف قرن حتى أعقب ذلك هبوط سريع في عدد السكان، ونقص في العمران الذي كان قائما بأراضى مصر والشام . بل إن أثر الفتح العثماني كان شديدا حتى على الحركة العلمية والأدبية التي كانت سائدة بمدارس القاهرة ، ودمشق ، فلم نعد نسمع بمصر عن رجال من أمثال ابن خلدون والسيوطي والمقرئ وغيرهم من أئمة الدين والفقه والشرعية . ثم انظر إلى أثر هذا العدوان ضد بلاد الاسلام في العقلية الأوروبية نفسها . فهذه جمهورية البندقية استمرت في علاقات حسنة مع مملكة مصر طول القرون الوسطى ، وإنك إذا ذهبت إلى هذه المدينة وزرت قصر الدرجات تجد في إحدى قاعات العرش رسما كبيرا يمثل سفراء ايران ، بين يدي عاهل البندقية . إن هذه الصورة توحى بأشياء كثيرة ، فان هذه الجمهورية بعد زوال مصر أخذت تبحث عن حلفاء لها من بين المسلمين .

والمعروف أن دوق البندقية كان عدوا للأتراك العثمانيين ، فهو يضع في مواجهة العالم اعتزازه بتحالفه مع أعداء الدول العثمانية من المسلمين ، وليس أبلغ للدلالة على تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم بعد حروب سليم الأول من هذه الصورة القائمة حتى اليوم درسا وعبرة لمن يريد أن يعتبر .

وما يقال عن إيران ينصب على سلطنة مراكش ، فهي قد

عاشت أكثر من ثلاثة قرون في شبه عزلة تامة ، نتيجة للسياسة العامة التي وضعها سليم والتي أراد أن يفرض بها سيادة الخاقان الأعظم على بلاد المسلمين وممالكهم ، وهي سياسة لم تكن تسمح بإيجاد علاقات واضحة صريحة مع دولة مراکش المستقلة ، ولم يكن من نتائجها سوى توالي الحن والنكبات وتحضير الظروف وتوطئة الأحوال الملائمة لذلك الهجوم الفرنسي ، الذي تمثل في الاعتداء على القطر الجزائري الشهيد .

قارن هذه السياسة المبنية على الدعوة إلى السيطرة العامة والخضوع لسلطان الخلافة مع المرونة التي أظهرها ملوك مصر ، ابتداء من من الملك الظاهر بيبرس مع خانات التتار والقبيلة الذهبية وأصحاب عروش التفجاق في روسيا تجد أنهم نقلوا هذه البلاد من الوثنية إلى الإسلام .

أما السياسة العثمانية فلم تنجح ، مع أنها كانت قريبة منهم ، لأنها جاءت لملوك هذه البقاع ، وفضات فرض نوع من الوحدة والسيادة عليهم ، وكان هؤلاء في عنفوان قوتهم ، فرفضوا الأذعان لسلطين آل عثمان ، وكانت دولة الخلافة في إبان مجدها وفتوتها فتمسكت بسياستها . وبعد قرنين ضعف الجانبان ، ودخل خانات القرم طوعا تحت كنف السلطان الأعظم ، فإذا هو عاجز عن

حمايتهم ، وإذا بالقوى تتجمع ضد الدوله العثمانية وكان أول من جاهر بالعصيان جماعات القوازق ، الذين خضعوا لها ، واستأسد حكام موسكو ، فأصبحوا بعد ضعفهم وخضوعهم لملوك المسلمين اباطرة وقيصرة . وكانت قلاع العثمانيين على نهر الدنيبر فى شمالى رومانيا وفى وسط بلاد المجر كافيه لصدموع أوروباجتمعة ، ولكن ماذا تفعل الجحافل العثمانية وقد امتدت الجبهة شرقا ، وظهر عدو جديد هو روسيا التى أخذت تكتسح الامارات الإسلامية حتى وصلت إلى شواطئ البحر الأسود ، الذى عرفته القرون بحيرة إسلامية .

لقد ظهرت للعيان أخطاء قرنين من الزمن لأن حلفاء الدولة العثمانية الطبيعيين هم سكان القولجا المسلمين وأمراء القرم ، وهم الذين كان بوسعهم دفع الشر إبان قوتهم ، وكان المنطق والعدل والأخوة تملئ بتقوية هذه الامارات وتشجيعها ، بدلا من مناوأتها ، فإذا هى أول ضحايا الزحف المسكوبى وإذا بالجبهة العثمانية تنهار بسرعة ، وإذا بمجهود السلطنة والخلافة ينصرف من يوم حصار فيينا إلى عهد حملة نابليون ١٨١٢ فى صد الهجمات المضادة التى شنتها أوربا فإذا وفقت فى صدها عاجلها الدب الروسى الأسيوى ، مستعينا بمن كانوا حلفاءها . لقد كانت محنة كبرى ولكنها من صنع أيدينا قبل أن تكون من عمل أعدائنا ، فالويل لنا إذا تكررت مرة أخرى .

فهل كان من حرج على سلاطين آل عثمان لو اتبعوا أساليب وسياسة سلاطين القاهرة في علاقتهم مع مسلمى الفولجا والقرم ، لقد أثبتت الأيام أن ملوك مصر كانوا أبعد نظراً ، وأكثر انبهاها . ولذلك لم تنكسب الدولة العثمانية كثيراً في سياستها الإسلامية وجاء اتساع رقعة أراضيها فلم يمكنها من أن تصير دولة متماسكة قوية ومع خدماتها الجلى للإسلام جاء وقت كانت هى وحدها الدولة الإسلامية التى تتلقى الصدمات التى يوجهها أعداء الإسلام وخصومه إلى أمه . وفى غمرات هذه الحالة جاءت حملة فرنسا على القطر الجزائرى ، فإذا القوى مبعثرة ، والأيدى مغولة ، وأراضى المسلمين الشاسعة خالية من السكان .

نذكر هذا ونكرره إزاء الصيحات التى نسمعها نحو الوحدة ، وتأليف دولة موحدة إسلامية . ونحن نبادر إلى القول بأن المتناقضات التى أورثتها لنا الأطماع والحزازات ، والعقد النفسية فلنحذر من الوقوع فى أخطاء السلف لأن هذه الأخطاء قد تكون أكثر وبالا علينا من المصائب والنكبات التى يسببها الأعداء لنا .

وكلمة هادئة نسوقها هنا هى : أننا من دعاة حرية الشعوب الإسلامية ، ولكن مع الإسراع فى الأخذ بمدنية القرن العشرين ، ومع العمل على نقل الشعوب إلى وعى قومى صحيح ، مبنى على العلم

والنور وفهم الحقائق والتثبت منها ، بحيث لا يمكن التأثير عليها
وقيادتها إلى أعمال تحمل من المبدأ جرائم الفشل ، وتنتهي إلى نكبات (١)
ومحن تضعف من شأن المسلمين ، فعلى ضوء تجارب الماضي ودروسه
القاسية تبنى وتؤسس دعائم المستقبل فنحن طلاب حرية وتقرير
مصير واستقلال ، كل شعب داخل نطاق حدوده القومية والتاريخية
ولسنا من أنصار الفكرة العثمانية التي رأينا أثرها بعد ثلاثة قرون
ممتدة في ضياع شمال أفريقية ، وإنما ندعو إلى تأسيس علاقات جديدة
بين الوحدات العربية والإسلامية تنمر على ضوء التجارب مع الزمن
نحو التحالف والتكاتف والتعاون ، حتى يعاد العمران وتنشأ
المواصلات ، وتحتفي الانقراض والخرائب وتحطم أغلال الجهل التي
أورثتها لنا أجيال ، عشنا فيها تحت كنف الاستعمار والاستعباد .
هذه ناحية هامة أعادتها إلينا ذكرى احتلال الجزائر ، وما
لمسناه من خمود أية فكرة عليا للدفاع عن هذا القطر الشهيد ،
فلننظر من ناحية أخرى لهذا الحدث الكبير في تاريخنا ، لنعرف
الدوافع الكامنة وأثرها .

لقد رأينا جيوش المسلمين تسير لتحرير العالم ، حتى إذا انتهت
إلى إسبانيا عبرت جبال البرانس ، ودخلت فرنسا بقيادة عبد الرحمن
ابن عبد الله الغافقي في سنة ٧٣٢ ميلادية .

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين .

وكانت انتصاراته سهلة على حكام البلاد فوصل زحفه إلى وادى نهر اللوار ، ولكن فى وسط الوديان الشاسعة بين بلدتى تور وبواتيه حيث المروج الخضراء التقت جموع العرب لأول مرة جموع مع عنصر أوربى مقاتل هم الجرمان ، وعلى رأسهم شارل مارتل ، ودارت رحى معركة قال عنها كتاب أوربا : هى المعركة الفاصلة بين الإسلام وأوروبا المسيحية على زعامة التمدن ؟ .

ولم تكن هذه المعركة بين الإسلام والمسيحية لأن أغلب مقاتلة الجرمان كانوا وثنيين ، ولكن الدعاية والرغبة فى التهويل والتفخيم أسبغت على هذه المعركة ثوباً فضفاضاً ، لأن نتيجهها كانت انسحاب العرب من وسط فرنسا إلى جبال البرانس ، فقالوا هنا التقت أوربا وآسيا . وفى هذه المعركة انهزمت قوى الإسلام ، ومن الغريب أن يذكر بعض المؤرخين أن بين من حارب فى صفوف المسلمين ، أمراء مسيحيين .

لقد شاءت الروح الصليبية السائدة فى أوربا أن تجعل من معركة تور وبواتيه ابتداء الهجوم المضاد على المسلمين ، لافى فرنسا وحدها بل فى إسبانيا ، واستمرت هذه الدعوة قائمة على الكراهية والافناء سائدة لمدة ثمانية قرون ، وهى تلاحق العرب ، حتى صفت المشكلة الإسلامية فى بحر من الدماء والمذابح فى إسبانيا ، وغادر آخر ملوك غرناطة ساحل الجزيرة الخضراء .

ولقد ظن المسلمون أو خيل إليهم أن نكباتهم قد اقتصت ،
وأن جحافلهم قد آن لها أن تستريح ، وكانوا في ذلك من الواهمين
لأنه لم تمض ثلاثة قرون حتى لاحقتهم الحروب في عقر ديارهم ،
وقدفت فرنسا — التي حكمها العرب وفتحوا ديارها — بحملة قوامها
أربعة وثلاثون ألفاً من خيرة جنودها وأسطول عدته أربعة سفينة
ومائة وعشرين مدفعاً تجرها الخيل .

ولم تكن هذه أولى الحملات ، بل تقدمتها محاولات أخرى ،
لقيت فيها مدينة الجزائر الكثير من عيبتهم ، وهدموا أحياء منها ،
ويذكر التاريخ مثل هذه الهجمات على مدن السواحل الأفريقية كلها ،
حتى مدينة الإسكندرية ، وبيروت ، وسواحل الشام أضيبت في
عهد الدول العثمانية وقبلها بشئ من هذا العدوان على أيدي
قراصنة الأوربيين .

ومع ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم تمكن أهل المدن الساحلية
وهم أهل المشاغرة والرباط من رد هذه الحملات إلى البحر والمحافظة
على السواحل الإسلامية ، واسترجاع المناطق التي سيطر العدو
أحياناً عليها ، ولعل هذه الانتصارات السهلة هي التي جمعت أمراء
المماليك بمصر يستصغرون شأن حملة نابليون ، وجعلت أهل الجزائر
يستصغرون شأن الحملة الفرنسية عليهم ، وكانوا في هذا من الخطئين

فدفعوا الثمن غاليا بهزيمتهم وموتهم ، وأضاعوا البلاد من أيديهم .
وبهذه الحملة انتقلت حلقات الهجوم المضاد لمعارك توروبواتيه
إلى الشاطئ العربى ، وبدأت حرب الموت والفناء ، تشنها قوة تعتقد
أنها تستعيد مجد روما على الرمال التى حملت أعلام روما القاسية ،
وتستوحى فى قتال المسلمين ذكريات الحروب الصليبية ، ومعارك
لويس التاسع فى أفريقية . وهكذا شاءت فرنسا أن نعيش نحن معاصر
العرب بأفريقيه الشمالية فى غمرات الهجوم المضاد ، الذى بدأه
الجرمانى شارل مارتل علينا .

ولم يكن هناك ما يبرر هذا العدوان فقد تقرأ الكثير مما ذكره
المؤرخون عن إهانة الوالى حسين باشا للجنرال دوفال Deval قنصل
فرنسا حينما قدم عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة ١٢٢٣ هـ ، وما سبق
هذا من النزاع على الديون التى ماطلت فرنسا فى دفعها لحكومة
الجزائر . والدور الذى لعبه كل من يعقوب كوهين بكري ومينخايل
أبو زناك اليهوديين فى هذه القضية ، وهل ترفع إلى مجلس الجزائر
أو إلى محاكم باريس التجارية للفصل فيها ، ثم احتجاج القنصل
ومغادرته البلاد ومن معه من التجار الفرنسيين ، وما قيل من أن
هذا القنصل تعمد إيجاد هذا الحادث بتوجيه عبارة غير لائقة للوالى
حينما طلب إليه إجابة صريحة من حكومته ، فرد عليه أنه ليس من

عادة ملك فرنسا أن يكتب من هو دونه بغير واسطة ، فأثار بقوله غضب الوالى .

إذا ما الفائدة فى تعرف أسباب العدوان بين القوى والضعيف والنية مبيتة والاستعداد قائم ، ولم يكن إختيار الجنرال ليرأس القنصلية وهو عسكري إلا توطئة وتحضيراً للأعمال الحربية القادمة .

ووقعت الواقعة فى التاسع عشر من يونيه سنة ١٨٣٠ ، إذ أقدمت فرنسا بغير إعلان حرب ، ولا إخطار للدولة صاحبة السيادة^(١) أو إنذار للوالى — وأنزلت عساكرها فى مرسى سيدى فريج ، وهى بقعة خالية من الناس ، لا تحرسها غير قوة صغيرة من الجنود فى برج قائم ، رأت أن تنسحب بغير قتال ، حقناً للدماء أمام طوفان الفرق النازلة من الأسطول بمدافعها وعتادها الحربى .

فلنذكر جيداً هذا اليوم ولا نفسه لأنه يحمل ذكريات العدوان الفرنسى على الأرض الأفريقية على بر الجزائر الشهيد . وبعد مائة عام أى فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣٠ احتفلت فرنسا بهذا اليوم ، فأثارت بعملها حمية شردمة من الجزائريين وإحراهم ، وخرجوا من ديارهم يجوبون الممالك حتى لا يروا بأعينهم فى ديارهم وأوطانهم ذل يوم يحتفل به الغاصب ، ويرفع أعلامه على أنقاض الوطن الجريح ، والشعب الشهيد . فلقبني جماعة منهم بمدينة استانبول ، وذكروا لى

مشاهد مما يلقونه من عنت ، وما صارت إليه أوطانهم ومرايعهم .
وهي البلاد العزيزة التي حملت أعلام المرابطين والموحدين ، وقبائل
المسلمين من العرب والبربر ، وكانت لهم السيادة والقيادة ، والحول
والقوة ، أيام كانت ترتج أمام امجادهم وعزائمهم جمحافل الفرنجة ،
وتخشاهم الدنيا .

وجاء منهم فريق إلى مصر فأمضى أياماً ، من غير أن يسمع لهم
صوت أو أنين ، ولما جاء الفوج الثاني أرجعهم بوليس مصر وشرطة
الموانئ ، بحجة أن مصر لم تكن مذكورة على جوازات سفرهم^(١) .
وضحكت من الأيام التي جعلت بوليسنا حريصاً على تنفيذ تعليمات
حكومة الاستعمار الفرنسية متيقظاً ألا يدخل مصر العربية من هم
أقرب الشعوب إلينا ، وألصقهم بنا ، ومن يحملون تأشيرة مصرية
قانونية . ولا أدري من الذي لفت الأنظار اليهم ، ومن حال بينهم
وبين مصر ، ومن أعطى التعليمات لاعادتهم ؟

وارتجت مدن الجزائر في يونيه سنة ١٨٣٠ ، وقامت القائمة فيها
والوالى يجمع جنده ويحشدهم ، ويرسل إلى البلاد والأقاليم يدعو
للجهاد والدفاع ويطلب النجدة من وهران وقسطنطينية ، وخرجت
الجموع لمهاجمة معسكر الفرنسيين ، فاقتحموا المراكز الأمامية أمام
تراجع الجنود الفرنسية ، حتى إذا صاروا تحت مرمى المدفعية

(١) أى ضمن البلاد المرخص لهم بدخولها .

حصلتهم بنيرانها حصدا ، فاختلت صفوفهم ، واخلوا الأماكن التي احتلوها ، وتعقبهم الفرنسيون ، وكانت هذه أول ملحمة على أرض الجزائر في يوم ٢٥ يونية سنة ١٨٣٠ .

وكانت قوات والى الجزائر محتشدة داخل حصون فى ناحية أبى جارية، فخرجت منها للقتال ، والتحمت مرة ثانية مع الفرنسيين فلم تصبر على النيران وارتدت ، وأخلت هذا المعسكر ، فاحتله العدو ثم تقدموا منه ، واحتلوا بساتين المدينة وأطرافها وبدءوا حصارها وبعد أيام أخذوا فى إطلاق نيران المدفعية ، فأصابت قذائفها برج مولاي الحسن ، وكانت فيه مخازن البارود ، فأصابتها قنبلة ، سببت انفجارا هائلا ، فاندك البرج على من فيه وتطايرت حجارته وتهدمت عدة منازل ، ومات خلق كثير تحت الانقاض .

وبهذه النائية اهتزت اركان المدينة ، وفقدت روح المقاومة ، واستولى الرعب والقلق على السكان ، فقرر الوالى تسليم المدينة .

وفى صباح يوم ٦ يولية سنة ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم سنة ١٢٤٦ دخلت جيوش فرنسا من الباب الجديد ، وأنزلت الأعلام العثمانية من القسبة والأبراج ، ورفعت الرايات الفرنسية ، واحتلت الجنود القسبة والقلاع والشواطىء ، وزالت من الوجود حكومة الجزائر الإسلامية .

وتم العدوان على الأرض التي امضت فرنسا السنين تحلم بوضع
اليد عليها، بعد أن فقدت أملاكها في الهند وأمريكا وجزائر المحيطات
ولم يرد في ذكر شروط الهدنة والتسليم نص على الاحتفاظ بحقوق
الأهالي وتقرير مصيرهم سوى النص الاستعماري الذي وضعه
نابليون في مصر وهو : احترام الديانة المحمدية ، وعدم التعرض
لنساء المسلمين .

وهو النص الذي ما انفك دعاة الاستعمار يرددونه في كتبهم
وأبحاثهم وخطبهم دليلا على روح التسامح ، ويقولون ماذا يريد
المسلمون وقد تركنا لهم حرية الدين ، وحفظنا لهم أعراضهم ،
كأن حياتهم وقف على هذا لا تتعداه ، أو كأنهم أهل آخرة لا تشغلهم
أمور الدنيا ، فلا تهمهم العاجلة ، ماداموا قد ضمنوا الآجلة ،
وأخذوا بأيديهم مفاتيح الجنان .

ويقول مؤرخو المسلمين : اهتزت لهذه النائية المشارق والمغرب
وكانت من أعظم النوائب ، والحقيقة أن العالم الإسلامي الذي
عهدناه يهتز لما يحدث في ركن منه لم يتحرك لهذه الكارثة ولا لما تلاها
من نكبات ، وإنما تحرك القطر الجزائري وحده ، أمام العدوان ،
وقامت قبائله ورجاله يذودون عن حياضهم ، وانضموا تحت لواء
الأمير عبد القادر ، يكتبون بدمائهم ملحمة من ملاحم الحروب

القاسية في تاريخ الإسلام الذي واجه الحقائق ، وقال : لقد تبينت ما قدر على وهأنذا مستعد للأقدام .

ولكن بعد مضي قرن من الزمن يقف أهل الجزائر مرة أخرى للامتحان أمام فرنسا ، ويرددون هذا القول ، لقد عرفوا وتبينوا ما كتبت له الأقدار ، فهل هم على عهد الأقدام قائمون ؟ هذا ما ستفسره الأيام .

وسنرى في القسم التالي ما كان من هذه الواقعة الخالدة .

القسم الثامن

الامير عبد القادر الجزائري

زعيم وأمير وجندى وقائد ثورة

« إذا صقلت بارق سيفي »

« وأخذت بالقضاء يدي »

« رددت الانتقام على أعدائي »

« وفرضت القصاص عليهم »

نشيد موسى النبي في

سفر التثنية

رأيت كيف تلقى العالم الإسلامى بوجوم انباء الاعتداء الفرنسى
على الجزائر ، وكيف احتلت فرنسا السواحل والناس فى شغل عن
هذا كائن الأمر لا يعينهم ، فألقى عبء الجهاد على أهل الجزائر ،
يقاتلون ويقتلون ويشردون . والقطر الجزائرى ساحل ممتد

الأطراف على مسافات شاسعة ، فأصبح لكل مدينة على البحر
جبهة قتال ، قائمة بذاتها .

ففي جبهة مدينة الجزائر زحف القائد الفرنسي إلى الداخل ،
واحتل مدينة البليدة وقدم أهلها الطاعة بين يديه ، ولكن دعوة
الجهاد والدفاع عن الوطن انتشرت بين القبائل في الجبال
المحيطة ، فاجتمعت الجموع ، وزحف إلى القتال ، وفي اليوم الثالث
من احتلال المدينة اقتحمت قوات المجاهدين أسوار البليدة ،
وهزمت جنود فرنسا ، فاضطر القائد العام أن ينسحب مع من بقي
من جنده عائداً إلى الجزائر ، حيث دعى إلى بلاده ، فأثر أن يعيش
بأسبانيا وجاء قائد آخر أخذ يدبر الأمور ، لاتمام الاحتلال ، تارة
بالسيف وأخرى بالخدعة ، وبذل الوعود .

في هذه الأثناء اتجهت الأنظار إلى سلطان مراکش ، واجتمع
أهل العقد والحل من سكان الجزء الغربي ، وأرسلوا وفداً إليه ،
يطلبون معونته ، فأجابهم إلى مطلبهم ، وبعث بأمير من أولاد عمه ،
فلقية الناس بالطاعة ، ووصلت طلائعه إلى ناحية مليانه شرقاً ،
ولكن فرنسا أسرعت وكلفت ممثلاً لدى البلاط الشريف أن يحتج
على هذا التدخل ، فاضطر سلطان مراکش أن ينسحب بجنوده ،
وأن يستدعى ابن عمه إليه ويترك أمر الجهاد لأهل البلاد .

كانت الدعوة إلى الجهاد عامة يشعر بها الناس كافة : من عرب وبربر ، ومن أهل الحضر ، وأهل الجبال والبادية ، وكانت الحرب في كل ناحية قائمة ولكن كانت تنقص الدعوة القيادة المنظمة التي تجمع الشمل ، وتنظم الجهود ، وتحرك المشاعر ، وتدفع هذه القوى الروحية نحو الغاية الكبرى .

ولقد شاءت العناية الإلهية أن تختار هذا القائد من جبهة وهران على الحدود المراكشية ، ففي سنة ١٨٣٢ قامت سرية من المجاهدين عقد لواؤها للسيد عبد القادر بن زيان بحركة كشفية ، حول أرباض المدينة وفي موضع يقال له خنق النطاح التقت السرية بفصائل العدو واشتبكت معها في معركة تعرضية ، وفي اليوم التالي أدركتها حشود المجاهدين فدخلت القتال متراصة زاحفة ، فانتصرت انتصاراً باهراً وفقر العدو منهزماً ، متراجعا إلى مدينة وهران .

وفي وسط المعركة ظهرت مخايل النجابة والبطولة ، والقوة والفتوة على الشاب عبد القادر بن السيد محي الدين الذي ما انفك مع والده يحرض المسلمين على الجهاد ، ويبوء المقاتلين دقاعد للقتال كان في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد عرف الناس فيه الحزم والعزم والعقل السليم والصبر في القتال ، خفأت المعركة فإذا بالشجاعة

وقوة البأس تظهران عليه ، وهو يخترق الصفوف ويباشر القتال بيده ، لنصرة دين الله . وبينما هو يخوض وسط المعركة تحمل عليه فارس من فرسان فرنسا برمح ، فإذا بالطعنة تمر تحت إبطه الأيسر فشد عليه عبد القادر بعزمه وقوته ، وهوى بسيفه على الفارس ، فإذا بالسيف يقطع كتف الفارس نصفين ، فكانت آية من آيات الله تناقلها الناس ، وسرى ذكرها بينهم . وتلقى جواده ثمانى طعنات ، ثم أصيب بالرصاص تحتة ، فنزل وترجل واستمر يقاتل في مواجهة العدو ، وهو على قدمه ثابتاً في موقعه ، حتى جاء النصر من عند الله ، وتقهقر العدو منهزماً ، لا يلوى على شيء ، وبات المسلمون ليالهم في التهليل والتكبير .

هذه بداية القائد الشاب بطل الاستقلال الجزائرى ، وصاحب المواقف الخالدة ، بين سنتى ١٨٣٢ و ١٨٤٧ ، الذى تمثل فى عبقريته عراك أمة وكفاح شعب يقاتل فى سبيل مثله العليا والذى أمضى ستة عشر عاماً فى الحروب لم يدع فيها القتال والتصادم والسكر والفرد فاعاً عن حومة الدين ، وعن حرية الوطن الشهيد وظهرت فيها صفاته وميزاته للقيادة والزعامة ، وضرب للناس مثلاً بتمسكه بالمبادئ والأهداف التى قام من أجلها ، فأسبغ عليها عملاً متواصلاً لا يحيد عنه ولا يرجع

وبرزت نفسه القوية التي لا ترهبها الأهوال والنكبات ، ولا تخيبرها الانتصارات المتتابعة ، ولا تنقص من حماسها النكبات والهزائم .

سنة عشر عاماً من المعارك المتواصلة ، لا تتخللها غير فترات قصيرة من السلم والراحة ، أفردها للتنظيم والإنشاء ، والدعوة إلى الله ، والعمل لبناء دولة ناشئة ، القيت أعباؤها عليه بأكملها ، إذ واجه مشاكل السياسة مع مصاعب الحروب ، وعالج الهزائم والدسائس بنفس عالية ، فيها قبس من أخلاق السلف الصالح ، وفيها تلك النواحي القوية التي أفرغها الإسلام على قواده وزعمائه من قوة أمام الأخطار ، وصلابة في الحق ، وتمسك بالعروة الوثقى مع تواضع ، وصبر على المسكاره ، وحوادث الزمن .

كان هذا في وقت عصيب واجهت فيه الجزائر أكبر محنة في تاريخها ، يوم دعيت وحدها للدفاع عن أراضيها ، ويوم ضعفت النفوس ، وتفرقت القوى بين عناصر متشاحنة ، وقبائل متنافرة . هنا ظهرت شخصية عبد القادر كمنشئ دولة ، وقائد جيش ، وزعيم أمة .

إن عظمة عبد القادر لا تظهر في انتصاراته وحدها ، وإنما في تغلبه على متاعبه ، وفي شجاعته وسط الهزائم ، والدعوة إلى الانشقاق والخيانة وفي مواجهة دعاة الويل والهزيمة . وزمرة

المنافقين ومن لازمهم) هنا تعلو حيوية عبد القادر على الحوادث حينما تراه مجاهداً ، لا تهمد عزيمة وسط الأخطار ، ومكائد العدو والبحر مغلق أمامه ، والعالم الإسلامي يغط في نومه ، فلا يخفف عنه إلا ذكر الله ، والدعوة إليه وإيمانه بأن إرادة الشعب الجزاى قد تمثلت فى إرادته ، وان الله قد اختاره لعمل كبير ، هو انقاذ هذه الأمة وقيادتها إلى الجهاد فى سبيل الله.

تقلب صفحات تاريخه ، وتسمع أقوال الخصم عنه ، وتنصت لنظمه وشعره ، وتقرأ رسائله ، فتلمس رجلاً قد أوتى حظاً من الإيمان ، والثقة بالله ، مما جعله فوق المستوى العادى للرجال كان من إختارهم المولى جل وعلا لعمل خالد ، فقد كان يعلم بأن أمامه دولة قوية ، قد أفرغت فى القتال كل قوتها ، وصممت على فتح بلاده ، واستعانت بما أخرجه الفن والعلم فى الحروب ، وقد خرجت من تجارب حروب ومعارك ، ومع ذلك وقف وقفته ، وكان يشعر بأن أعداءه فى الداخل لا يقلون خطراً عن أعداء الوطن ، فتقبل بالرضا حكم الأقدار ، وقاد بلاده هذه السنين ، وهو واثق من نفسه لا معين ولا حليف له ولا أمل لديه إلا همة السيوف التى خرجت من أغمارها ، ووقفت معه .

نعم في وسط المكائد والهزائم والدعوة إلى الهزيمة تعلو قوة عبد القادر ، فتخلق من الهزيمة قوة ، وتدعو إلى الله ، وتعمل على جمع الشمل فيقود الأمة الجزائرية إلى كفاح طويل إلى المجد .

ذلكم هو بطل الاستقلال الجزائري وأول مسلم تلقى بصدوره حملات الهجوم المضاد ، الذي شنّه الغرب علينا لا نتزاع أراضينا . حينما أكتب عنه أستعيد ذكرى حادثين أثّرا في حياتي : أما الأول فصورة زيتية للأمير عبد القادر رأيته في السوق الخيرية التي أقيمت بحديقة الأزبكية ، انصرة المجاهدين من أهل طرابلس ، لما اعتدت إيطاليا على أراضيتهم . رأيته على جواده ، وقذائف المدافع تنفجر من حوله ، فوقفت مأخوذاً ، وكنت في العاشرة ، فإذا بصاحب المؤيد الشيخ علي يوسف يحدثنا عن بطل الجزائر ، ومن ذلك اليوم انطبعت في نفسي صورة القائد الزعيم وحرصت أن أقرأ عنه ، وأتعرّف إلى معاركه وأيامه .

أما الحادث الثاني : فيوم وقفت على قبره تحت قبة سيدي محي الدين ابن عربي بمدينة دمشق . لقد كان الشوق إلى زيارة الضريحين شديداً طوال سفرى من أنقرة ، ولما تم اللقاء ، وقفت أمام هذا القبر أستمطر الرحمة على بطل الاستقلال ، ومرت أمامي صفحات الجهاد وأسماء البلاد في الجزائر :

وهران . قسنطينة . تلمسان . المعسكر . مستغانم . البليدة .
مليانة ، وذكريات المعارك الخالدة في رأس العين ، وخنق النطاح
ووادى الزيتون ، وغيرها من مواقفه .

وفي باريس صررتان كبيرتان ، تمثلان عراك الأمير وجنود
فرنسا ، وتقتحم الصفوف أعرفهما . قيل أن الأمير وقف أمامهما
عند زيارته للعاصمة الفرنسية وقال : أراكم تمثلون جنودنا منهزمة ،
فهلأ نظرتهم ورسمتم المعارك الكبيرة ، التي ولى فيها جنودكم الأدبار .
وفي قصر العجزة حيث متحف الجيش الفرنسى نجد الآثار
والأعلام والأسلحة من بقايا حروب عبد القادر ، لقد كنت ألمسها
ثم أقبل يدي التي لمستها وانحنى أمامها ، وأقول هل أعيش لأرى
الجزائر حرة ، وقد خلعت استعبادها ، وأسمع أناشيد الأمير من
مقصورة التائية ترتل في مدارس القطر الشهيد .

ونحن لنا دين ودنيا تجمعنا
ولا نفر إلا مالنا يرفع اللوا
وانا سقينا البيض في كل معرك
دماء العدى والسمم أسعرت الجوى

أريد أن أشرح معاركه ، وأكتبها ليقرأها أبناء مصر العربية ،

وإيروا آيات المجد والبطولة، ولكن الزمن يسير بخطوات سريعة ،
وأريد أن أحدثهم عن يوم تجمعت فيه أحكام القدر ، فألقى البطل
سلاحه ، واستأمن للخصم ، على أن يذهب للاسكندرية ، فحنثت
فرنسا بإيمانها وموائيقها وعهودها ، وقادته أسيراً إلى فرنسا حيث
أمضى مع والدته العجوز وأهله خمس سنوات في الأسر ، يحن فيها
إلى البلاد التي أراد دفع الشر عنها ، ثم أطلق سراحه ، فإذا طريقه
إلى دار الخلافة حيث يلقي السلطان عبد المجيد العثماني . وبعد إقامة
يسيرة في بروسة يذهب إلى دمشق ، وهناك يعيش حتى يرقد رقدته
ليترحم عليه محبوبه . أما أنا فقد قرأت حين وقفت على ضريحه قوله
تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم
في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)
(آل عمران)

ذلك لإيماني أن أمة تنجب عبد القادر لن تموت ، بل ستبعث
بعثاً يهز الأرجاء ، لأن الدرس الذي ألقاه علينا كان درساً يحرك
النفوس ، ويدفع للعمل لقرون قادمة . إنه قوة من قوى الذات
الإلهية التي بعثها لخير الناس ولما خطه الله في سجل القدر ، من أن
تحيا الأمة الجزائرية ، لتعود إلى أيامها الأولى ، أيام
المرابطين والموحدين .

القسم التاسع

كفاح الجزائري أمام جحافل فرنسا

قال ضابط البحرية الياباني :

إنك لم تفهم بعد الدرس الذي تلقيناه من أجدادنا بهزيمتهم وموتهم . أنه درس صبر وعناد ، وبقظة واحتراس ؛ ومكر وخديعة لكي نتصر على أعدائنا ذهبنا لمدارسهم ، وكانت عقولنا لا تفهم تعاليم الغرب وأساليبه . فشعرنا بحاجتنا إلى عقلية أوروبية ، فأقدمنا بكل صعوبة وألم وحسرة على التحرر من أشياء عزيزة علينا للحصول عليها ، ولكن هذا التغيير كان لازماً لأجل الخلاص ؛ لأجل إنقاذ الوطن ؛ لكي نتصر على الأعداء في الميدان .

(من كتاب المعركة)

إننا لا نحاول سرد حوادث هذا الكفاح لأن من السهل تتبع معاركه وأدواره وحلقاته من كتب التاريخ في مختلف اللغات ، ولذلك سنكتفي بإعطاء فكرة إجمالية ، أو رسم صورة عامة من التي يراها

واقف على مرقب أو مركز للرصد على رابية عالية تشرف على الحوادث والتطورات وعلى مواقع القتال ، ونرجو أن نوفق في إخراج التاريخ صورة حية ، وذكرى لمن شاء أن يتذكر ، من دروسه وتجارب وعبره ، حتى لا تتكرر الأخطاء مرة أخرى في تاريخنا وكفاحنا^(١) .

كانت حكومة الجزائر الإسلامية من الحكومات التي ليس لها شبيه أو مماثل في التاريخ ، إذ كانت تابعة للدولة العثمانية ، ولكنها تتمتع بسيادة وحرية ، وكانت خارجة على القانون الدولي ، والعرف السائد بين الأمم الأوربية ، ومع ذلك فهي تفرض الاتاوات على دول الغرب ، وتتقاضى رسوم المرور في عرض البحر ، وإلا هاجمت أساطيلها المراكب التجارية ، وأحيانا تغور هذه الدول ومرافئها ، ولهذا سلمتها الحكومات المختلفة ، وأذعنت لقبول ما تفرضه هذه الحكومة عليها ، فكانت فرنسا ترسل إليها هدايا معلومة مالية أحيانا ، وأخرى معدات وآلات حربية ، وكان هذا شأن بريطانيا معها والدانمارك وملكة صقلية والبرتغال والسويد والنرويج ، حتى ولايات المانيا والولايات المتحدة خضعت لهذا النظام العجيب الذي فرضته حكومة قليلة العدد ، ولكنها كثيرة البطش .

(١) كتب قبل نكبة فلسطين .

وكانت قواتها المسلحة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ ألف مقاتل ، من الجنود الأتراك^(١) ، أو أبناء هؤلاء من أمهات وطنيات ، وكان ينضم إليها رجال من قبيلة زواوه ، وهي التي حرفها الفرنسيون ، فأصبحت فرق الزواف المشهورة التي قامت على متطوعي هذه القبيلة ، وبقياء جند حكومة الجزائر النظامية .

وعلى هؤلاء الجنود اعتمد الدفاع عن المدن الساحلية عند مهاجمة الفرنسيين ، ولما ثبتت قواعد حكمهم جندوا من الأسرى أول فرقة وطنية للاستعانة بها .

أما في الداخل فقد قامت قوة الدفاع من جماعات المقاتلة من رجال القبائل ، وهم مشاة وفرسان على طريقة حروب البادية ، ولما اشتدت المعارك فكر الأمير عبد القادر في إدخال النظام العسكري الحديث ، مقلدا المحاولات التي حاولها كل من محمد علي ، والسلطان محمود العثماني ، ولا شك في أن هذه المحاولات قد بهرت أنظاره ، وتطلع إليها ، وحاول تقليدها .

وفي سيرة الأمير ذكر ابتداء هذه الحركة وانتشار الدعوة إلى تجنيد الأجناد وتنظيم العساكر تحت اللواء المحمدي ، وإيجاد دفاتر لتقيد الجنود ، الذين بدءوا تدريبهم ، وأتموا تعليمهم ، ورسم الذين حملوا السلاح منهم كما فيها وصف كامل لأصناف الفرق ، من مشاة

(١) دخل الأتراك المغرب في عهد ابن طولون ، وهاجروا إليه في عهد الأيوبيين جماعات .

وفرسان، ومدفعية، وطريرمة التعبئة، والسير والنزول في المعسكرات ويظهر أن هذه القوة مع اهتمام الأمير عبد القادر بها لم تكن هي التي يقع عليها عبء القتال وحدها وإنما كان الكفاح موكولا إلى رجال القبائل، وكانت هي بمثابة قوات ثانوية مساعدة ومكملة.

أما الفرنسيون فكانوا على علم تام بطبيعة الأرض الجزائرية من ناحيتها الجغرافية والطبوغرافية ولديهم الخرائط المفصلة عنها فقد أثبتت المراجع الرسمية أن نابليون الأول أرسل ضابطا فرنسيا إلى الجزائر عام ١٨٠٨، وكلفه أن يدرس بالتفصيل مشروع الحملة الفرنسية، ووضع الخطط العسكرية الشاملة، وقد قام هذا الضابط بمهمته، وصحح المواقع على الخرائط، ورفع تقريراً وافياً عن الشاطئ الأفريقي والأماكن التي تصلح لإنزال الجنود وأشار إلى الطرق والآبار والوسائل التي تؤدي إلى حشد القوات وربطها، والسير في حلقات الحملة، ولم يكن لدى الفرنسيين عند عدوانهم سوى إخراج هذا التقرير من ملفات وزارة الحربية وتقييد مافيه وهذا ما حدث في عدوان سنة ١٨٣٠ إذ انزلت الفرق في الأماكن المختارة في هذا التقرير وتحت تجارب حملة مصر عند احتلالها مدينة الإسكندرية واختيارها لمنطقة العجمي التي تشبه سيد فرج ولم يكن الفرنسيون على جهل بأساليب القتال لدى المسلمين، فهم قد حاربوا المماليك في معركة

انبابه^(١)، ورأوا ما يمكن أن تقوم به أساليب القرون الوسطى أمام جتود معبأة على الطرق الحديثة. ثم هم لم يهتموا تتبع التطور الذي أدخل على أنظمة جيوش المسلمين، فقد كان من ضباطهم وتوابعهم من رافق حملات مصر ضد الوهابيين، وكانوا في الصفوف الأولى يقيدون حركات المصريين ودفاع الوهابيين، ويكشفون عورات الجانبين، ثم يستفيدون من كل ذلك في حروبهم بالجزائر.

واختير للقيادة البرية الماريشال بورمون وهو من رجال سنة ١٨١٥ أى من الضباط الذين قاتلوا في معركة واترلو، وحضروا معارك نابليون، فأُسندت إليه أمرية حملة بنيت على تقرير ضابط من ضباط نابليون، وكان على الأسطول الأميرال دوبريه، ولسكل منهما طابعه الخاص، ورغبته في الإنفراد والتسلط فما لبث أن دب الخلاف بينهما، ولولا تعليمات الحكومة الصريحة أنه إذا اختلف الرأيان فضل رأى الماريشال، وأسندت إليه القيادتان البرية والبحرية لاستفحل بينهما النزاع ولفشلت الحملة.

ولعل أعظم ماساعد الفرنسيين على التغلب هو أعمال المدفعية التي تجرها الخيول، فقد امتازت منذ الساعة الأولى كما ذكرنا بقوة بيرانها، وتوفيقها في إصابة الأهداف وسرعة حركتها، فكانت أول عامل من عوامل النصر لديهم. كانت كمدركات هتلر، وفرقة

(١) كانت معركة الاهرام قاضية على فكرة ان جيوش المالك لا تقهر.

البانزر الألمانية في الحرب الأخيرة وهى الميزة التى كانت لدى الفرنسيين على جند حكومة الجزائر وعلى العرب المجاهدين . ولولا هذه القطع من المدفعية لكانت الحرب بين الفريقين على مستوى واحد ، من تكافؤ معدات القتال .

فلتنظر إلى ساحل ممتد الأميال ، عليه مدن ومرافق متعددة ، ويتكون الداخل من سلاسل جبال ووديان ورمال ، تصلح للحروب وتسمح للقبائل والعشائر التى تسكنها أن تتولى عملياتها بكل سهولة ضد الجيش المهاجم سيما وهى من جماعات ألقت الحرب .

على هذا الميدان نزلت قوات فرنسا بمعداتنا الثقيلة ومهماتنا الأوروبية لتواجه أهل البلاد ولديهم ثلاثة أصناف من المقاتلة : جند حكومة الجزائر وحكام المقاطعات ، الجند النظامى الذى أنشأه الأمير عبد القادر ثم العمود الفقري للقتال وهم رجال القبائل الذين لبوا دعوة الجهاد .

هذه هى حرب الجزائر التى اشتدت وطأتها على أربعين ألفاً من الجنود الأوربيين ، اصطلوا بمعاركها ، ومشوا إليها تحت وهج الشمس ، فتغيرت سحتهم ، وتبدلت لديهم ملابس الميدان ، وأصبحوا مع الزمن كقطيع منفصل عن العالم ، لا يعرف سوى الحرب والدمار وإسالة الدماء على الأرض الأفريقية . هذا جيش أفريقيا ،

الفرنسي ، الذي ولد ونشأ وترعرع في معارك الجزائر ، وحرورها القاسية ودارت رحى الحرب سنوات والهزائم تتولى والمصاعب تتضاعف وامايس لدى الفرنسيين الخبرة الواسعة بالإدارة والحكم ، فهم تارة يجنحون إلى الشدة ، ويقنعون أنفسهم إنها هي الحزم ، وأخرى يتقربون زلفى إلى الأهالى ، وفي أوقات يقدم قوادهم على عمليات حربية ، فيها المجازفة والتسرع ، فترتد عواقبها وخيمة عليهم .

من وسط هذه النكبات ظهرت فكرتان : الأولى إنشاء المكاتب العربية التى أطلق عليها فى النهاية اسم المكاتب الوطنية . والثانية تجنيد أهل البلاد وقد ظهرت بوادر النجاح فى الناحيتين ، إذ بالاعتماد على الفرق الوطنية المقاتلة وبعد احتلال مدينتى بون ووهران ، واتباع خطة الدفاع أمكن انقاص القوات الفرنسية من ٣٧ إلى ١١ ألفاً فعد هذا نجاحاً للقيادة .

أما المكاتب العربية فهى التى وضعت سياسة التخريب والتشريد^(١) وهى إحراق المناطق المزروعة ، ومصادرة قطعان الماشية ، التى تملكها القبائل العاصية ، والاستحواذ على الأطفال والنساء كرهائن ، والفتك بهم إذا استمرت الحرب ، وأخيراً تطور هذا النشاط إلى القمة ، واتجه إلى بذر الشقاق بين عناصر وطوائف الأمة الجزائرية ، وخلق قضية العرب والبربر ، فأكسبت هذه المكاتب فى هذا النشاط من المعارك أضعاف ما أكسبته فرنسا بقوة السلاح .

(١) لو قرأ المسئولون اساليب فرنسا فى الجزائر لما وقعت نكبة فلسطين .

وكان الأمير عبد القادر أول ضحايا عمل هذه المكاتب فإن قواد فرنسا حاولوا كثيرا أن يعقدوا اتفاقا معه ، ولما توصلوا لذلك ، واعترفوا باستقلاله وأمارته سلطوا مكاتبهم عليه ، ووجهوا المطاعن بواسطة وكلائهم وخدامهم ، فقالوا أنه حالف الكفار ، واعداء الدين ، فأصبحت بيعته باطلة ، ووكلته على الناس غير قائمة ، وعرفت هذه المكاتب السياسية أن تجعل بين أبطالها من هم من رجال الدين والطرق والزعامة ، وجندت من يتظاهر بالجهاد الوطنية ، وأصبحت مع الزمن من أخطر المنظمات الاستعمارية وأشدّها وطأة بما تملك من الوسائل والقوى الخفية ، مما يعجز الناس عن تصديقه ، ولقد عشنا في كثير من بلدان الشرق ، ورأينا أمثال هذه المنظمات تعمل في هدم الكيان الإسلامي والاستقلال ، ورأينا أناسا يقودون المظاهرات الوطنية ، ويخطبون في الجماعات ، ويجهرون بمبادئ متطرفة ، ويكتبون عن أنظمة للحكم ، يسارية أو نازية ، ثم يكتشف بعد زمن طويل ، وبعد فوات الفرص أنهم مقيدون كخدم لهذه المنظمات الخطرة ، يتلقون وحيها ، ويعملون بأوامرها ، وقد وصل بعضهم إلى المال والمركز والجاه ، تحت ستار التضحية والعمل والإخلاص فطوبى لهم .

ولهذا يجدر بالأحزاب والمتصدرين للجهاد في سبيل المثل العليا

أن يرقبوا الأنصار والأتباع ، قبل الخصوم والأعداء ، وأن يقوموا
من بين وقت لآخر بغزيلة صفوفهم ، واجراء حركة تطهير ، لأن
الدول الاستعمارية وطدت سلطانها بهذه المنظمات ، وبمن يتبعها من
الرجال المنبشئين في كل جهة والذين يشايعون الاستعمار وتلعنه ألسنتهم
ويتظاهرون بالتطرف لاختفاء حقيقة الأمر .

ولقد تمكن الأمير عبد القادر من إيجاد دولة عربية مستقلة ،
عاهدت الفرنسيين على السلام ، واحتفظت بقواها كاملة ، بعد أن
حققت ما ترمى إليه بانتصارها في ميدان القتال ، ولكن الدولة
التي عاهدها كانت تفكر قبل أن توقع على المعاهدة في نقضها فما ان
وقعت عليها حتى بدأت ترسل النجدات تترى ، وأخذت تثير
القبائل عليه .

ويقول الفرنسيون في ذلك « إننا لم نعقد مع أمراء المسلمين
معاهدة وإنما عقدنا هدنة لكسب الوقت ، حتى يتم تحطيم الجبهة الشرقية
ثم نعود إليهم في وهران . »

هذا ما حدث فإن ضغطهم تحول فجأة من جهة الأمير عبد القادر
إلى جهة قسنطينة على حدود تونس ، حين عبأت فرنسا قواتها
بأكملها ، وزحفت على المدينة في هجمتين : فشلت في الأولى في فبراير
سنة ١٨٤٧ وكان ذلك قبل التوقيع على معاهدة تفنا مع الأمير ، ونجحت

في الثانية بعد نقل حاميات الغرب فاقتمحت المدينة المحصنة في
أكتوبر سنة ١٨٣٧ .

ومن ذلك يتضح أن قواد فرنسا بعد أن أدركوا فداحة حرب
الجزائر أخذوا ينسقون خططهم الحربية، فوضعوها على أن تنفذ على
مراحل، إذا أتموا مرحلة، انتقلوا لغيرها، ووضعوا المبدأ الثابت وهو
شراء النصر والغلبة بأي ثمن، حتى لا تفقد فرنسا هيبتها العسكرية .
ولذلك وصلت قوة جيوشهم إلى ٥٦ ألف مقاتل في سنة ١٨٤٠ ،
واستدعت فرنسا بعض الكتائب الممتازة من أصناف القناصة التي
كانت تعد من قبيل فرق الكوماندو في العصر الحاضر، لتفوقها في
التدريب أي زهرة الجيوش الفرنسية .

أما الأمير فقد آمن بعد مفاجأة الفرنسيين لعاصمته بالفرق
الكبير (بين الجنود المنتظمة والجنود المتطوعة) ولذلك انتهر
فرصة عقد المعاهدة وعزم على إنشاء جيش نظامي حديث فعقد مجلسا
عاما من رجال الدولة وأعيان الرعية وخطب فيهم خطبة أوضح فيها
فوائد العسكر النظامي ومنافعه وأخبرهم أنه اعترم على تنظيم عدد
منه فأجابته الجميع، ونودي أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد
الأجناد وتنظيم العساكر . . فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي
ويشمله عز النظام فليسارع إلى دار الأمانة والمعسكر، ليقيد اسمه
في الدفاتر الأميرية .

ومع انتصارات فرنسا في جبهة قسطنطينة أخذت تظهر بين جنودها آثار الحروب الإفريقية ومتاعبها ، فقد ساعدت سنوات السلم على ازدياد حوادث العصيان بين الجنود الأوروبيين ومخالفة الأوامر ، وعدم الإذعان للقواعد المعمول بها في الفرق الفرنسية بأوروبا ، نتيجة لاختلاف البيئة والجو ، بل أن مضى السنوات أبان اختلال الأنظمة الصحية وأساليب التغذية ، واضعف النظام مما أدى كما قلنا إلى الإستهانة بتطبيق القواعد العسكرية ، وظهور حوادث العصيان ، وأعقب ذلك نسكة مليانة التي أظهرت للعيان ضعف قوة المقاتلة لدى الفرق الفرنسية الصميمة ، وفقدان الروح العسكرية ، ودرجة الضبط والربط ، التي عرفت عن الجيش الفرنسي إزاء هذه النسكة اضطرت فرنسا إلى تغيير قيادتها العامه في الجزائر برمتها وأجبرت على إدخال أنظمة جديدة للجيش وإلى العمل على رفع مستوى الحياة في الشكنات والمعسكرات والتشديد في المحافظة على روح المقاتلة والسكفاح في المستوى المعتاد ، بعد أن كانت هبطت هبوطاً مملوساً في المعارك الأخيرة .

ولم يستفد الأمير عبد القادر من هذه الفوضى الضاربة أطناها لما ينقصه من خبرة وإمام بأساليب الأوروبيين وأنظمتهم وإلا لضربهم ضربة ميته وقت شدتهم .

ومن كل ذلك تخرج بنتائج مؤلمة .

إن جهاد أهل الجزائر كان مجيداً ومشرفاً لهم ، ولكنه لم يكن موحداً تتولاه هيئة قيادة عامة ، كان جهاداً مرتجلاً ، ولم يكن هناك ارتباط أو تفاهم أو تأزر بين مختلف الجبهات .^(١)

إن الأمير عبد القادر بقى وحده يجاهد ، فلم تصله أية مساعدة من تركيا أو مصر .

إن عبقريته ظهرت في المعارك التي انتصر فيها ، ولكن لم يدعمه أحد من القواد أو الفنين الأوربيين .

إن متاعب العدو ومشاكله بقيت مكتومة من علم الأمير وقواده إن المكاتب العربية التي أنشأتها فرنسا كانت على علم تام بمشاكل الأمير ومتاعبه وكانت تزيدها وتحركها وتشعل نيرانها إذا همدت . إن السلم الذي حصلت عليه فرنسا كان هدنة لكي تتمكن من توجيه ضرباتها إلى جبهات أخرى ، ثم تعود إلى الجهة التي سالمتها لتقضى عليها .

في وسط هذه الحروب تبدو حكمة الضابط الياباني أنه أخذ بالعقلية الأوروبية لأجل الخلاص ، لأجل إنقاذ الوطن لكي ينتصر على الأعداء: وهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى كسب المعركة .

(١) ظهرت هذه الأخطاء في حملة فلسطين ١٩٤٨ .

القسم العاشر

الاستعمار الفرنسي في الجزائر العربية

يوليه ١٨٣٠ — يوليه ١٩٤٧

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق »

قرآن كريم

إنه نبأ هذه الأمة الجزائرية العربية ، التي تسكن أرض الجزائر ولها على هذا الوطن الحق الطبيعي التاريخي الثابت ، الذي لا تضعفه أقاويل فرنسا وادعائها ، لأنه منبعث من ثنايا القرون العديدة التي أمضتها هذه الأمة على أرضها ، وهي تتمتع بكامل شخصيتها وميزاتها ، لا يشاركها فيها أى مشارك ، ولا ينافسها فى مجادها أى منازع .

إنها قضية تسعة ملايين نسمة من المسلمين ، تحاول فرنسا أن تجعل منهم قطيعاً فى بلادهم ، فى الأرض التي حملت تاريخ آبائهم وأجدادهم . أتدرى إنهم محرومون من حق سياسى أو اجتماعى أو ثقافى ؟ . وأنهم لا يستطيعون أن يجهروا بأقوالهم ومشاعرهم ، لأن

حرية القول ، وحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة ، بل حرياتهم الدينية محرمة عليهم .

ولكى تحتفظ فرنسا بإدارتها الاستعمارية وجبروتها : تلجأ إلى فرض نوع من الرقابة البوليسية لا يقل عن أشد أنواع الجستابو ، الذى فرضته ألمانيا النازية ، والجيو الذى فرضته روسيا السوفياتية على أراضها . إنها تجعل من إدارة الأمن العام والمكاتب الوطنية أداة للإرهاب والتشريد والتجسس ، وكبت الحريات لدرجة أنها تصرف خمس الميزانية ، على هذه الاداة البوليسية الجبارة .

تصور حكومة تشتري كيائها وحكمها وإدارتها ، بأن توزع خمس أموالها على هيئة بوليسية للقمع والإرهاب . ماذا يبقى لها أن تفعله فى ميادين الحياة العامة ، ونشر التعليم ، والصحة . وهى مضطرة أن تحتفظ بجانب هذا بمبالغ للصرف على الجيش والقوات المسلحة الأخرى .

لقد عرفنا شاتينيو Chataigneau سكرتيراً عاماً لمفوضية فرنسا بسوريا ولبنان ولحقنا فى أحاديثه وأقواله الرجل الفرنسى ، المتمسك بمبادئ الثورة الفرنسية ، وتقاليدها المنبعثة ، مما أعلنته عن حقوق الإنسان . كان يصرح بهذا وبلاده تحت الحكم النازى وسيطرة جيش الاحتلال ، ودارت الأيام فإذا به يشغل مركز الحاكم

الفرنسي العام . إنه يمثل الجمهورية ببلاد الجزائر ، وها هو ذا قد لبس لباس الاشتراكية ، وجاهر بحقوق الأمم المظلومة ، ولسكنها في نظره وفي عقيدة أمثاله من اليساريين : من اشتراكيين وشيوعيين قاصرة على الأمم الأوروبية وحدها . أما شعوب الشرق ، وأمم الاسلام فهي في الجزائر ، وشمال إفريقيا ، وفي بخارى ، وواوسط آسيا - سواء في تحمل الضنط والخضوع لسيطرة الاستعمار الفرنسي أو السوفييتي . ماذا يقول حاكم الجزائر الاشتراكي . إنه يقرر في خطابه الذي ألقاه في يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٥ بالمجلس المالي الجزائري (إن تضخم أرقام الميزانية راجع إلى زيادة عدد الموظفين في إدارة الأمن العام .)

أي أن حكومة الجزائر الإستعمارية الرجعية التعسفية ، والتي يوجد على رأسها حاكم إشتراكي تشتري وجودها بشمن باهظ ، من حياة الشعب الجزائري . إذ تفرض عليه الجهل الدائم ، لتعيش مع جيش موظفيها . إنها تترك الأمراض وتسرى وسط جماعاته والمنون تأكل من أطفاله ، لكي تعيش هي مع جيش من الموظفين الفرنسيين يخدمون مآربها ويؤكدون سلطاتها ، وجبروتها عليه .

وفي الوقت الذي تصرف فيه فرنسا على بوليسها وعيونها هذه الثروة الطائلة من أموال الشعب الجزائري نجد أن ما خصصته من هذه الميزانية للصحة العامة لا يتجاوز أربعمئة وثلاثين مليوناً من الفرنكات ، وما أرصدته منها للتعليم أقل من ذلك بكثير .

لذلك انتشرت الأمراض بين طبقات الأمة وضح المستعمرون حينما تبين لهم أن نسبة القادرين على حمل السلاح من الجنود الوطنيين قد هبطت لأن الأحوال الصحية لم تعد تسعف الآتون الفرنسي بالآلاف المؤلفة من أبناء الغرب الجزائريين ، لدفعها إلى جوفه في حملاته الإستعمارية ، وليحولها إلى أشلاء وهياكل عظمية ، إنه يطلب المزيد من ضحاياه .

فهذه القوة الجبارة التي تسمى « إدارة الأمن العام » هي أداة إستبدادية نجدها في تحفز دائم واستعداد قائم للاقضاء على الشعب الجزائري إذا تحرك ، أو أظهر امتعاضا . إنها تمكن المستعمرين من إبعاد أمة بأسرها عن دفة الحكم . وعن تولى المصالح العامة في بلادها . أى تجعل من شعب يزيد تعداده على تسعة ملايين نسمة غريباً في بلاده ، طريداً في وطنه ، منبوذاً على الثرى الذى حمل سطوة آبائه وأجداده ، بل تفعل أكثر من هذا ، إنها تقيم بينه وبين العالم سدا لا يجعله يبصر شيئاً مما وراءه ، لأنها تعزله عن الدنيا كما يعزل الموبوء والمجذوم ، كي لا يرى نور العالم . ألا فليعلم العالم أجمع أن أهل الجزائر محرومون في بلادهم من قراءة الجرائد العربية التي تأتي إليهم ، وإن لدى المكاتب العامة قواعد لا تسمح لها أن تعير الوطنيين حتى السكتب الفرنسية ، التي تتحدث عن الحرية وآمال الشعوب .

فهل رأيتم سدا كهذا السد .

أما في الميدان الاقتصادي فما من شعب من شعوب الدنيا تحمل ما تحمله الشعب الجزائري ، منذ وضعت فرنسا قدمها في شمال إفريقيا . إنها أخذت تنهب الثروة الوطنية ، وتصادر أملاك الأهالي وتجعل أراضى الحكومة والدولة وخيرات الأمة وقفاً على المستعمرين الفرنسيين ، ومن لاذ بهم من طريدى الجنسيات الأخرى . ولقد نقل صاحب كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر أن قائد الجنود الفرنسية رتب مجلساً من رؤساء الجند ، لضبط الخزائن من الأموال والمهمات الحربية والذخائر ، فتحصل من ضبطها على ما قيل من الذهب والفضة ، وقيمة الجواهر ٥٢٧ و ٦٨٠ و ٤٨ فرنكاً من الذهب ، ومن الخنطة والشعير ٣ ملايين ومن المدافع والبنادق والبارود والقنابل وغيرها مع ثمن الأملاك الأميرية خمسين مليوناً .

فهذه الثروة الطائلة التي وقعت غنيمة لأيديهم عند الفتح علمتهم طريقة الاستحواذ على غيرها ، فإذا هم من يولية سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٩٤٧ يسировن على هذا المنوال من المصادرة والاغتصاب حتى انتهوا بأن فرضوا الفقر والفاقة والإملاق على شعب بأسره . وهذه الثروة الطائلة قد غطت ما تكلفته الحملة الفرنسية الأولى

من أعباء مالية علاوة على ضياع الديون ، التي كانت فرنسا مدينة بها
لحكومة الجزائر الإسلامية .

أما مصادرة أملاك الوطنيين فسياسة وضعتها فرنسا وقلبتها
فيها إيطاليا وإسبانيا ، وهي تتلخص في تحديد منطقة خصبة من
الأراضي ، ونزع ملكيتها اغتصاباً ، ونقل سكانها بالقوة منها . (١)
وقد عمدت فرنسا لأول مرة إلى هذه السياسة في أقاليم القبائل
وفي جهة قسطنطينة كعقاب أنزلته بالسكان الجزائريين عقب ثورة
عام ١٨٧١ ، إذ نزع ملكية ما مقداره خمسة ملايين من الأفدنة
المصرية ، منها مليون فدان من أجود الأراضي الخصبة شردت
أصحابها ، وجعلت هذه الأراضي لإسكان المهاجرين الفرنسيين ،
خصوصاً أهالي الألزاس واللورين ، وهم الذين طلب باسمهم الكردينال
لا فيجري ، تسليمهم هذه الأراضي ، وإخراج الأهالي الوطنيين منها
دون أن يعرض أصحابها شيئاً .

وقد سارت حكومة الاستعمار على طريقة فرض غرامات
باهظة ، وتحصيلها بشدة متناهية ، فأخذت ملايين الفرنكات من
أهالي المقاطعات التي قامت بثورة القبائل ، وعرف الوطنيون الذلة
والمسكنة ، وبيع الأراضي والدور في سبيل عتق رقابهم .

(١) تنفذ هذه السياسة ضد المسلمين في روسيا والقوقاز وفي الهند وأخيراً
بشكل علني في فلسطين .

ولا يزال بعض الإخوان المغاربة الذين لقوا الويل على أيدي فرنسا ، يحدثون أهل الشام بهذه السكوارث ، ويقولون لهم : أتم بخير مادمتم بعيدين عن حكم فرنسا المباشر ، وهو الذى يمثله قاضى الصلح الفرنسى ، وحارس الأحراش ، فالثانى يكتب المخالفات والأول يصدق غيايبا عليها فلا يشعر صاحب الملك الوطنى إلا بالتنبيه على نزع الملكية يلاحقه ، فلا يقدر أن يفلت من يدي القضاء إلا وهو مجرد من كل ما يملك .

وبهذه الأساليب والقواعد التعسفية خرجت أحسن وأخصب الأراضى الزراعية وأجودها ، من أيدي الوطنيين ، وأصبحت تحت يد المستعمرين الفرنسيين ونزلت نسبة أملاك الجزائريين إلى نسبة ٣٦٪ من الأراضى الزراعية ، التى كان يملكها الجزائريون إرثاً عن آبائهم وأجدادهم ، وأدخل الفرنسيون فلاحه الكروم التى شغلت أكثر من ستة ملايين فداناً ، وهى كروم مخصصة لأنواع الأنبذة فهبطت مساحات الأراضى المخصصة بالحنطة والمحاصيل الحبوبية ، لمعيشة السكان الوطنيين وتعرضت مناطق الجزائر لأخطر المجاعات ، التى انتابت أفريقيا فى العصور الحديثة ، نتيجة لتلك السياسة الإستعمارية التى انتزعت من الأهالى أخصب أراضيتهم ، وجعلت منهم عمالاً أجراء ، يعملون لدى السكولون

الفرنسي لقاء دراهم معدودة ، في أراضي كانوا يملكونها في
الأمس القريب .

فالبلاذ الجزائرية التي كانت قبل ١٨٣٠ تنكفي سكانها من
محاصيلها الزراعية ، وتصدر من خيراتها الشيء الكثير قد أصبحت
في موقف اقتصادي ، يجعلها عالة على غيرها في إطعام سكانها
وإعاشتهم ، لأن الاقتصاد الزراعي والإنتاج الذي فرضته فرنسا
عليها لا يتفق مع حياة السكان الوطنيين ، ومصالحهم ، وموارد
رزقهم ، وتنظيم أمور معاشهم ، فهم في فقر مدقع ، واحتياج دائم
ويموت من هؤلاء آلاف كل سنة بسبب الإملاق والمرض
وسوء التغذية .

وقد مات في سنة واحدة حسب التقارير الفرنسية ما يقرب من
نصف مليون جزائري ، إبان المجاعات التي انتابت بلاد الجزائر في
إحدى سنوات القرن الماضي ، ولم تحرك هذه النكبة أحداً من
الأجانب ، الذين لم يشعروا بها ، وكانوا في رغد من العيش الدائم .
إن قيام سلطة حكومية فرنسية بالجزائر أمضت أكثر من مائة
عام ، لا يهتمها شيء من أمور المواطنين — أمر لا يقبله نظام العالم
الجديد ، ولا يمكن أن يسلم به دعاة الحرية ، ومن يتبجحون بمبادئ
رفع الظلم عن الشعوب المغلوبة على أمرها ، هذه حكومة

تفرض الإمتيازات وحقوق الإنسان لفريق من السكان ، تمنحه كل الخيرات ، والباقي منهم أى تسعة أعشار السكان ، وهم أهل البلاد مجردون من كل حق لهم ، بل تطاردهم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتسير بهم نحو التشر يدوالإفناء .

وفى سبيل إبقاء هذه الحالة تحرم الحكومة الجزائرية الفرنسية أهل الجزائر من حق التعليم ، وما يتبعه من حق النفوذ الإجتماعى .
ففى منذ سنة ١٨٣٠ أبطلت كافة المؤسسات الثقافية والتعليمية ، التى كانت قائمة بمدينة الجزائر وفرضت سياسة الجهل المطبق ، ومحاربة اللغة العربية ، لغة البلاد الرسمية ، واعتبرتها لغة أجنبية ، بل ذهبوا لاكثر من ذلك ، إذ حرمت تعليم القرآن الكريم فى الكتاتيب إلا إذا علمت معه الفرنسية ، فكم عدد هذه المؤسسات التى بوسعها أن تعلم لغة أجنبية فيها ؟ كان هذا القانون بمثابة حرمان الأهالى من تعليم الكتاب الكريم ، ولا يوجد ما يشبه هذا القانون سوى الإجراءات التعسفية التى فرضتها حكومة فرديناند وازابلا ، على أهالى غرناطة المسلمين عندما أوقعهم سوء الحظ تحت بطش قوم نزعت كل عواطف الإنسانية من قلوبهم .

ولعل أعظم ماتماز به الإدارة الفرنسية بالجزائر محاولة نشر الجهل ، وتعميم الأمية بين طبقات الشعب الجزائرى ، حتى لا تقوم له قائمة ، أو يشعر بشخصيته ووجوده .

فقد صرح عميد الجامعة الجزائرية أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية في يناير سنة ١٩٤٢ بمدينة الجزائر (أن بين ١٢٥٠٠٠٠ طفل وطني في سن الدراسة ١٠٠٠٠٠ فقط خصصت لهم ٦٩٩ مدرسة وأن عدد الأوروبيين حسب الاحصاء ٩٠٠٠٠٠ وعدد أبنائهم الذين يتمتعون بالتثقيف والتعليم الابتدائي ٢٠٠٠٠٠ طفل خصصت لهم ١٤٠٠ مدرسة).

هذه أرقام تتحدث بنفسها عن سياسة فرنسا إزاء عاياها المسلمين بالجزائر ولو شئنا أن نقيس حالتهم في درجات التعليم العالي والثانوي لرأينا العجب العجيب فإن النسبة لا تتعدى فيها ١٠ ٪. بأي حال من الأحوال ولم نكن نصدق شيئاً من ذلك حتى عاينا هذا بأنفسنا في بعض المعاهد الفرنسية التي تفرض لأبناء المسلمين نسبة معينة لا تتعداها ، مهما كانت ظروف أهلهم ، وذلك لكي يقترب الإسلام بالجهل ، وتلصق بالمسلمين ظلماً وصمات التعصب والتأخر وعدم الرقي والخروج عن ركب الحضارة في القرن العشرين .

هذه سياسة أمة تقول : إنها أعلنت حقوق الانسان ، وبشرت العالم بدين جديد بمبادئه وبالحرية والعدالة والمساواة وانها هدمت بشورتها صروحاً للاستبداد ويزيد الفرنسيون على ذلك قولهم : إنهم حملوا اعلام الحرية والرقي والسعادة إلى بلاد الجزائر ولقد رأيت فيما تقدم البراهين القوية على سيطرتهم ، وجبروتهم وإفلاسهم في حكم الجزائر .

ليس لدينا الآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا .
بل إن موقف مجلس الأمن إزاء قضايا مصر وفلسطين واندونيسيا
ليس مشجعاً . ولعل انقسام الكرة الأرضية إلى معسكرين من
نتائج هذه الرجعية القائمة في أنحاء الدنيا .

ولكن على الشعوب مهما كانت الظروف القائمة أن تشق طريقها
إلى حياة النور ، وأن تعمل لتتغلب على المصاعب القائمة ، حتى
تفرض شخصيتها وآمالها وأهدافها ، على العصر الذي تعيش فيه .
سيكون الطريق وعراً أمامنا ، والعقبات صعبة في صعودنا نحو
الحرية والعدالة ، ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند ، وأن
نعتبرنا العالم مجموعاً حيارقياً ، نملك من حق الرعاية والمعاملة ما يملكه
أى مجموع أوروبى راق ، يسير نحو التطور . إننا نفضل أن نفنى
جميعاً من أن يحاول العالم إرضاءنا بالعرض دون الجوهر ، أو يلهينا
بالأقوال دون الحقائق . إننا نأخذ عقلية وأساليب أوربا لتتغلب
على جبروت أوروبا .

القسم الحادى عشر :

الاستعمار يواجه الاسلام فى الجزائر

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك
من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير
إنك على كل شىء قدير

(آل عمران)

ولنبلو نكم بشىء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين
(البقرة)

قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين .

(الأنعام)

تبين للعالم قوة الإسلام ، وعظمة الرسالة المحمدية ، في هذه الآيات البينات ، التي دعت المسلمين إلى الصبر والمصابرة ، للوقوف أمام حوادث الدهر بشجاعة وثبات ، فلا تلين قناتهم ، وتذهب ريحهم وإنا لنبعث بها تحية لأخواننا المسلمين بالجزائر ، الذين وقفوا أمام فرنسا وجبروتها . ولئن كانت صفحات كفاحهم السياسى والحربى فى الجزائر ، معروفة أمرها وتداولتها الأيام ، فإن كفاحهم الدينى فى وطنهم وثباتهم معجزة من معجزات الله لأن فرنسا فى معاهدة ١٨٣٠ مع حاكم الجزائر تعهدت كما قلنا باحترام الدين الإسلامى وشعائره ، وأخذت على نفسها الموائيق ، لأن تترك للمسلمين أوقافهم وعوائدهم ثم عقدت عدة معاهدات . واتفاقات ، مع الأمير عبد القادر الجزائرى وغيره من الزعماء ، وفى نصوصها جميعا : العهود والموائيق على غرار هذه المبادئ ، وهى حرية العقيدة وترك أمور الدين الإسلامى وشعائره بيد أهله .

ولكن هذه المعاهدات ، وما تحمله من إيمان ووعد ، وما أعقبها من تصريحات رسميه صادرة من الحكومة الفرنسية وممثلها ، ثم من الأمبراطور نابليون الثالث نفسه ، عند زيارته للأقطار الجزائرية كل هذا لم يمنع الاستعمار أن يبسط يده على كل شىء فى هذه البقعة العزيزة علينا ، وكان من جملة ذلك أن مدت فرنسا يدها إلى الدين

الإسلامي، وإلى الأوقاف الإسلامية، تراث القرون الماضية ومفخرة المسلمين، لأنها أوجدت ووقفت وبقيت طول الأزمان واحترمها ملوك المسلمين وأمرأهم لما يعلمون من أنها أرصدت للصرف على المؤسسات الإسلامية، وهي هذه المدارس والمساجد الجامعة، التي تحرص على تشييف أبناء الأمة، وتثبيت قواعد الدين، وتلقين الناس تعاليم الشريعة الغراء.

فما الذي حدث في الجزائر؟

ذكر الدكتور انريكو انسياتو الإيطالي في كتابه الإسلام وسياسة الخلفاء (ص ٧) ما يأتي بالنص:

ارتبطت الحكومات الأوربية في بعض الجهات باحترام أملاك الأوقاف وما أرصد من الأملاك على الزوايا والطرق الصوفية، وهذا شرط خطير يحسن بإيطاليا أن تفكر فيه طويلا، قبل أن تأخذ به، لما ينتج عن احترامه من نتائج وخيمة، سبق لفرنسا أن تحملتها في الجزائر، لأنها حينما أعطت هذه الموائيق والعهود لم تكن لديها فكرة واضحة تماما، عن أهمية أوقاف المسلمين، وأثرها في إبقاء قوتهم الدينية، فكان من نتيجة هذه السياسة المرتجلة أن ارتسكت فرنسا سلسلة من الأخطاء للخروج من هذه السياسة، التي فرضتها على إرادتها، فاضطرت أن تناقض ما أخذت به نفسها، وتعهدت للمسلمين باحترامه.

(١) ولما هاجم المستعمرون نظام الاوقاف في شمال إفريقيا عامة ، قالوا :
إنه نظام رجعي ، يمنع تداول الثروات ، والقصد من ذلك حرمان
المسلمين من أملاكهم ، ونسبوا إليه أنه نوع من استغلال عمل الإنسان
لأنه يفرض الجبر وذلك حينما رأوا الطلبة والمريدين يتلقون العلم في
الزوايا والمدارس الإسلامية ، ويعملون في زراعة الاراضي
الملحقة بالمعاهد ، وكانوا يطلقون على هذا العمل التعاون الإنساني :
إسم المعونة . ولما ازدهرت أملاك الاوقاف وزاد خيرها استكثرها
هذا الخير عليها : وحاربوها بإسم الحرية والعدالة والمساواة ، وهم
يعلمون أنهم يتصدون أولا وآخرها هدم قواعد الدين وأفقار أهله
وهذا ما وصلوا إليه ، حينما شردوا الطلبة ، ونزعوا أملاك الاوقاف
ولم تكن هذه الاوقاف مرصدة للعلم وحده ، وإنما كانت لوجه
الله للسائل والمحروم ، وفي هذه الناحية بالذات يقول صاحب كتاب
« التشريع الإسلامي الجزائري » صفحة ١٨٠ ما يأتي «
إن خمسة أعشار الاراضي الزراعية في الجزائر كانت أوقافا ،
وأن فرنسا حينما صادرت هذه الاملاك بسطت يدها على الدين
الإسلامي ، وجعلت آلافا من الاهالي الذين كانوا يعيشون في تلك
الاراضي جماعات ، تتجول لطلب العيش ، فأصبحت تسمى
بفيالق الفقراء .

(١) يلاحظ القارئ أن الذين يهاجون الاوقاف بمصر يستعملون منطق
الدول الاستعمارية .

والحكومة الفرنسية تمثل فكرة لادينية^(١)، ومعنى هذه السياسة في العرف الذي نادى به فرنسا هو الكنيسة الحرة ، تتعاون مع الدولة الحرة .

وتفسير ذلك أن تمتنع الحكومة عن فرض إرادتها على أنظمة الكنيسة ، وقرارات رجال الدين ، فيبقى الفاتيكان يقوم برسائله الدينية والسياسية بحرية أوسع مما كان في السابق .

ولما انتقدت سياسة فصل الدين عن الدولة صرح احد اعضاء مجلس الشيوخ « إن هذا الفصل طلاق ولكنه يلزم الطرفين بالعيش تحت سقف واحد مع تعاون وتفاهم أوفق مما عهداه قبل صدور حكم الطلاق . »

وقال أيضا « أن الكاثوليك سيكونون أكثر كاثوليكية تحت هذا القانون ، لانه يؤكد سلطة البابا ، ويحترم ممثليه ويترك لهم الحرية دون أن يقفوا للدفاع عن أعمالهم أمام ممثلى الجمهورية . »

وايس هناك أصرح من هذه الأقوال لترك شؤون الله لله ، وشؤون قيصر لقيصر ، فما الذى هيأته حكومة الجمهورية التى فصلت الدين عن السياسة لرعاياها المسلمين ، الذين اعترفت لهم بحقوقهم الدينية كاملة ؟

يقول صاحب كتاب « بحث النشريع الجزائرى صفحه ٦٣٢
لارشير .

إن الأوقاف الإسلامية التى تتولاها الدولة يصرف دخلها
على ناحيتين :

الدين الكاثوليكي ٧٩٠.٠٠٠ فرنكا

الدين الإسلامى ٣٣٧.٠٠٠ فرنكا

والاعتراض الاساسى هو كيف تتولى دولة ينص دستورها على
فصل تام بين شئون الدين والدنيا أملاك دين ، لم يكن لة بها صلة فى
يوم من الأيام ، فعلى أية قاعدة بنيت هذه السياسة ؟

والإعتراض الثانى : هو إذا فرض أن رأيت هذه الدولة أن
تتبرع من أموالها بهذه المبالغ ، وهى دولة لادينية فالمعروف أن
أتباع الديانة الكاثوليكية لا يصلون إلى عشر السكان المسلمين ،
ولكنهم يتمتعون بما يزيد على ضعف المبالغ المخصصة للشئون
الدينية لمن هم أكثر من عشرة أضعافهم ، فأى قاعدة إنصاف
أخذت بها ؟ .

ويهون الأمر لو كان هذا تبرعا ، ولكن لأن يؤخذ هذا من أملاك
وأموال وأوقاف المسلمين وهى مرصدة ومحبوسة على هذه الناحية

منذ قرون طويلة الأمد ، ولم يتعرض لها أحد من الدول ، التي تعاقبت على حكم الجزائر ، وهذه ثلاثة الإعتداءات ، التي لا يبررها منطق للآن ، ويفسر لنا كيف ضعفت الحياة الدينية في الجزائر وفي ذلك يروى لنا (البير ديفوكلي A . Devauckli في كتابة المؤسسات الدينية في العاصمة الجزائرية أن مدينة الجزائر كانت تحوى ١٨٦ مسجداً في سنة ١٨٣٠ ولا يوجد في القطر الجزائري بأكملة غير ١٦٦ مسجداً جامعاً كما ذكر ذلك صاحب (بحث التشريع الجزائري) ولا نشك في أن هذا العدد سيهبط إذا دام حكم فرنسا جبلاً آخر . وليان هذه السياسة التعسفية إزاء المسلمين وشريعتهم ودينهم يحسن أن نشرح هذه الفكرة ، من مراجع الاستعمار الفرنسي نفسه . فقد جاء في كتاب جورج هاردي G , Hardy « نظرياتنا الإستعمارية الكبرى » إنه في المناطق التي لم يسدها الإسلام قط أى في أفريقية السوداء ، يجب أن تحاط الأديان والمذاهب الأفريقية بما يكفل حمايتها وبقائها وفي مناطق البربر يجب منع تعليم اللغة العربية منعاً باتاً ، وعدم تشجيع نشر المكاتب القرآنية ، ومنع نصب القضاة المسلمين والحيولة دون تنفيذ شريعة الإسلام »

« أما في الجهات التي ثبتت قواعده في ربوعها فلا مانع من تركه (١) يعيش ، ولكن فلنحترس من الاهتمام بأمره ، وإظهار الإعجاب به .

(١) تنفذ بعض الدول الإسلامية المستقلة هذه السياسة في أراضيها .

فهذه أصول السياسة الإسلامية الفرنسية، وهي تحول دون إنتشاره في أفريقية، وتعتبر القبائل من أهل الجزائر ومراكش غير مسلمين ، وتحاول أن تحد من أثر الإسلام في المناطق الإسلامية الصميمية .

فلننظر إلى بدء هذه السياسة ، وما تركته في نفس الشيخ محمد بيرم التونسي ، صاحب كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، الذي طبعه سنة ١٣٠٢ هجرية ، عن زيارته للجزائر ، في رحلته عام ١٢٩٥ هجرية ، وقد مضى على ذلك سبعون عاماً تقريباً إذ قال :

أن الدولة الفرنسية هي القائمة بمصاريف إقامة الجوامع وما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب الحديث ، لأنها استولت على جميع الأوقاف ، واقتصرت في كل بلد على عدد مخصوص من المساجد ، تقوم به وغيره ، تصرف فيه بما يناسبها ، وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين .

وذكر كيف أقدمت الهيئات التبشيرية عند وقوع المجاعة الكبرى في الجزائر على تنصير عدد من الأولاد الأعراب وغيرهم من المسلمين بنات وأطفالاً ، وإن بعضاً منهم لما كبروا وعلموا بأن أهلهم مسلمون ففروا إلى أهلهم .

وأشار إلى بقية من علوم السلف كانت تدرس في قسنطينية وتلمسان والجهات الجنوبية ، ولكن القلق كان شاملاً لأفاضل العلماء فقد تقابل مع الشيخ على الخفاف المفتي المالكي بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الأفريقي الشيخ إبراهيم الرياضى ، وله فضائل كاملة ، وتقوى ، وسكينة ، وإطلاع فى الفقه والحديث . ولما أنس بمؤلف الكتاب فاتحه فى أمر الهجرة إلى بلاد الإسلام فأخبره أن مثله نادر الوجود ، وإن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع له ، وأكثر ثواباً عند الله من خروجه بنفسه ، وترك تلك الأمة المسلمة خالية من مثله ، بل ربما كانت هجرته سبباً فى خروج غيره فتحرم عامة المسلمين ممن يلقبهم تعاليم الإسلام ، وعقائد الفقه . وقد ورد فى كتب الشريعة أنه إذا تعذر على ولى الأمر فداء الأسارى من يدي العدو فليؤخر بينهم العلماء .



فهذه حالة الجزائر من ناحية من أهم النواحي التى تهتمنا ، ناحية العقيدة الإسلامية ، وفيها عبرة وتذكرة ، لمن يريد أن يفهم حقائق الإسلام فى قطر من أعز الأقطار الإسلامية ، وأقربها إلينا ، وأبعدها أثراً فى تاريخ أفريقية العربية ، التى لن تموت ، وفيها دعائم الإسلام القائمة .

وإننا لنعدّها معجزة إن بقيت هذه الدعائم في أفئدة ملايين من الناس بعد سنوات الضغط السياسي ، والمحاربة التعسفية ، التي أشرنا إليها ، ولكن الذي نخشاه هو أثر سياسة الفقر ، التي فرضتها فرنسا على رعاياها المسلمين ، فهذه أبعد غوراً من أى أساليب الإرهاب التي رآها العالم ، وهي التي ورد وصفها في محكم الآيات الواردة بالقرآن ، بقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) فقد أصيب المسلمون في نكبتهم بالاستعمار الفرنسي بهذه النوائب : قلة الغذاء ، وكثرة المرض ، وسكنى المنازل التي لا تليق بالإنسان ، ثم دهمتهم في السنوات الأخيرة نكبات القحط المتتالية ، وتفشت فيهم الأمراض القاتلة .

فهناك تفعل قلة الغذاء ، أو عدم تنظيمه ما تفعله في كافة بلدان الدنيا ، التي أصيبت بحكم الأوروبيين ، حتى أصبح الكلام هنا إعادة لما سبق ذكره ، وتأثير هذا كبير في تكاثر السكان وتناسلهم ، وفي إخراج جيل من الأجناس البشرية ضعيف لا يقوى على البقاء أو الصمود أمام تفوق الأجناس الأوروبية من الناحيتين العقلية والبدنية . ويسكن لدينا عدد من السكان في أكواخ من صفائح الغاز الفارغة ولكن في الجزائر يعيش أكثر من نصف مليون مسلم ، في أحياء برمتها ؛ أو في مدن قامت على هذا النوع من المساكن ، ولهذا لا نعجب

أن نسمع أن أكثر من ٤٠٠.٠٠٠ جزائري مصابون بالسل ، وهو يعادل عدد المصابين به في فرنسا ، وعدد سكانها يقرب من أربعين مليوناً ، ولما كانت الوقاية الصحية غير متوفرة لدى الأهالي وليس لديهم أية خدمات لحمايتهم ، فقد انتشرت الأمراض الزهرية انتشاراً اجتاح قرى برمتها .

إن أعظم صورة تقدمها فرنسا بعد حكم دام أكثر من قرن من الزمن هو مواكب النساء والرجال والأطفال ، الذين لا يجدون من الكساء إلا مايسترهم يسرون نحو بقايا الأطعمة ومنابلها يلتقطونها لسد رمقهم . بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم ، وقادتهم ، ومدارسهم ، وأوقافهم ، وفرضت عليهم الذلة والمسكنة ، وحرمتهم من كل مميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه . لقد بقي لهم شيء واحد هو الإسلام والإيمان بالله .

(قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) .

قد يرى البعض أن الأمة التي كانت ترج البحر الأبيض المتوسط قبل احتلال فرنسا قد رقدت رقتها النهائية واصبحت في ذمة التاريخ بعد أن أدّت رسالتها ولسكنه مخطيء في ظنه . فالأمة الجزائرية ستحطم هذه الأغلال ، وستخرج من هذه الظلمات بقوة تبهز فرنسا والكلولون الفرنسي ، لأن النيران المتأججة لايزال بريقها

واشعاعها تخفيه تحت الرماد. امة إذا تحركت واثارت ستهز هذا الركن
هزة عنيفة ، لا تقدر على الوقوف إزاءها قوات الظلم والتعسف .
« اننا لا ننتظر الرحمة من أشد الناس عداوة لنا » .

« كما لا نرضى بالعطف يغمرنا به أحب الناس إلينا » .

« دعوني أصار حكم بالحق : والحق اقول » .

« أى أخوانى فى الحروب والمعامع والمعارك » .

« انى احبكم من اعماق القلب » .

« انى اعاهدكم كواحد فيكم » .

« اننى كما كنت فى الماضى سأتبقى اليوم وغدا واحداً منكم » .

بهذا النشيد الذى كتبه الفيلسوف الالمانى اختتم هذه الكلمة
وهو ينم عن شعورى تماماً : وأعتقد أن المسلمين فى كفاحهم سواء
فى شمال إفريقيا أو فى أنحاء روسيا ، أو فى مقاطعات الهند ، لن
يقابلهم خصومهم بالرحمة : سيفرض علينا القتال وهو عراك حتى الموت .
فأما النصر أو الابداء ولا وسط بينهما .

إن الحياة هى التفاؤل ، ونحن ندعو إلى انتزاع النصر فى السلم
والحرب ولا يكون هذا إلا بنقل الجماعات الإسلامية إلى حياة
القرن الذى نعيش فيه وتحاشى الوقوع فى الأخطاء التى وقعنا فيها قبل اليوم

مراجع الكتاب

كتب عربية

١ — في بلاد الناس أو رحلة الشتاء والصيف .
بلاد الجزائر القطر التونسي طرابلس الغرب
المطبعة العثمانية . بيروت
تأليف عبد المجيد كامل الضابط بالجيش المصرى سابقاً

٢ — تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر
المطبعة التجارية . الاسكندرية ١٩٠٣

٣ — صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار

١٣٠٢ هجرية

تأليف محمد بيرم التونسي

کتاب فرانسیه

- | | |
|--|----------------------|
| 1 — Histoire de l'Armée Française | Général Weygaud |
| 2 — » Militaire de Mohamed Aly et ses Fils | Parle |
| 3 — Campagnes Modernes | » Général Decoins |
| 4 — Nos Grands, Problèmes Coloniaux | » Georges Hardy |
| 5 — Réalités Coloniales Mercure de France | |
| 6 — Pour l'Empire Colonial Français | » Cabriel Hanotau |
| 7 — La Révolte Arabe | » Eugène Jung |
| 8 — L'Avenir Economique de nos Colonies | » » » |
| 9 — Voix de l'Orient | » Jacque d'Aumale |
| 10 — L'Islam et la Politique des Alliés | » Enrico Insabato |
| 11 — Les Siècles Obscurs du Maghreb | » E. F. Gautier |
| 12 — Précis de Géographie Economique | » J. F. Horrabin |
| 13 — L'Emir Abd El Kader | » Colonel Paun Azan |
| 14 — Allah est Grand | » Mohammed Essad Bey |
| 15 — Le Socialisme Constructif | » Henri de Man |

16—L' Allemagne en Afrique et La Guerre

Par

le Baron Hulot Librairie Telix Alcan 1918

17—La Politique Orientale de la Russie 1918

18—Discours et Messages Général de Gaulle

19—Le Livre Jaune Français

Ministère des Affaires Etrangères

20—. Les Intrigues Anglaises Contre L' Islam

Mohammed Farid Bey

Librairie Nouvelle de Lausanne 1917

مؤلفات فرنسية من مجموعته

Les Doléances des Peuples Opprimés ;

33—En Algérie

Les Corruptions de la Religion et des Mœurs Indigènes

Par un Musulman Algérien

34—La Tunisie et l'Algérie

Par Cheikh Ismail Sefaihi Ancien Cadi de Tunis

et

Chiekh Saleh Cherif Ancien Professeur à L'université

Zeitouna de Tunis

35—L'Islam dans l'Armée Française

Lieutenant Indigène Bou kabouya Hadj Adallah

des Tirailleurs Algériens

Librairie Nouvelle de Aouzanne 1917

کتاب انجلیزہ

21—History of The Great War

Military Operations :

22 — War Speeches

Winston Churchill

23 — The Rising Tide of Color

Lothrop Stoddard

24 — The New World of Islam

» »

25 — The Revolt Against Civilisation

» »

26 — The Menace of the Under Man

» »

27— One World

Wendell L. Willkie

28 — A study in German Ideals

General von Bissings Testament

29— Germany's Annexationist-Aims by S. Grumbach

مؤلفات طبعہا ونشرہا

The Christian Literature Society for India.

30— . The Ottoman Turks

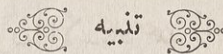
The Rev. Canon sell

31— The Mamluks in Egypt

„

32— Muslims in China

„



وقعت بعض أخطاء مطبعية وزيادات في النص

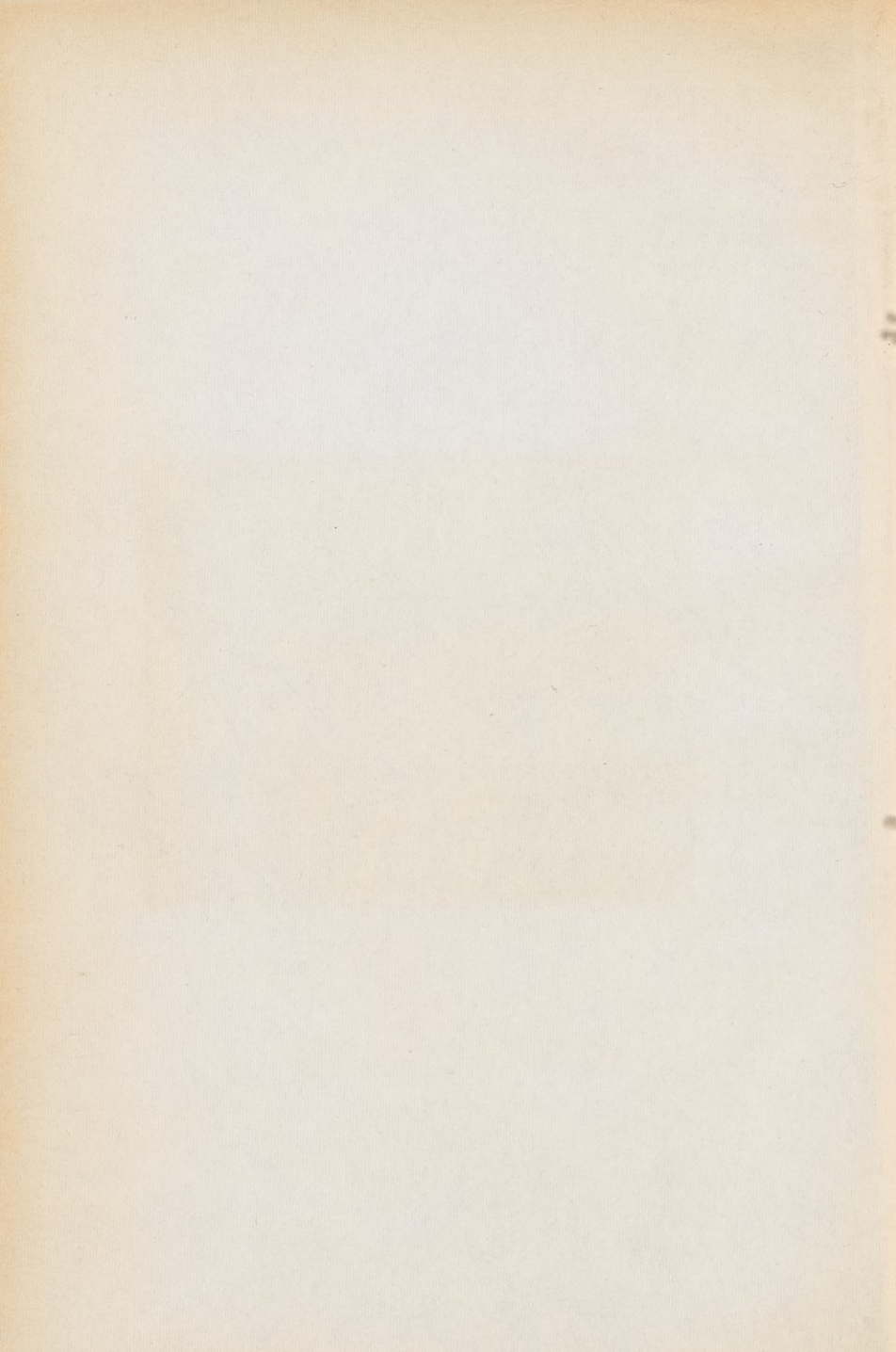
يمكن للقارئ الكريم تداركها وقت قراءته .

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	السعر
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق في الغرب	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء والاسلكي	الأستاذ محمد عاطف البرقوقي	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	» محمد عطيه الابراشي	٢٠٠
٥	الجدبشة	» حسن محمد جوهر	٢٠٠
٦	الغزل عند العرب	» حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين	الآنسة زاهيه مصطفى قدورة	٢٥٠
٨	فلسفة القرآن	الأستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	{ الشيخ محمود شلتوت » محمد محمد المدني	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطيه الأبراشي	١٥٠
١١	أبو العتاهية	» محمد احمد برانق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس ابراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهين الذهبي	{ الأستاذ وهي اسماعيل حنفى » ابراهيم عبد الله	١٠٠
١٤	صرخة في واد	» محمود عنيم	٢٠٠
١٥	الصحافة والصحف	المرحوم الأستاذ عبد الله حسين	٣٠٠
١٦	الوزراء العباسيون	الأستاذ محمد أحمد برانق	
١٧	اللعب والعمل	الدكتور علي عبد الواحد وامي	
١٨	ولادة	الأستاذ علي عبد العظيم	
١٩	من كل نبع قطرة	» حسن جوهر	

فهرس الاستعمار

صفحة	الموضوع	وع
ج	مقدمة سعادة توحيد السلحدار بك	
٤	مقدمة المؤلف	
٧	بحث في الاستعمار الأوروبى وسيطرته على العالم	
٣٠	فرنسا ومستعمراتها	
٤٦	صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم	
٥٧	في طريق الاتحاد الجبرى	
٦٤	فكرة الاتحاد تواجه المصاعب	
٧٢	ما بين الاتحادين الفرنسى والسوفييتى من تشابه	
٨٧	فرنسا في مراکش	
٩٤	الاعتداء على الجزائر	
١١١	الأمير عبد القادر الجزائرى	
١٢٠	كفاح الجزائر أمام جحافل فرنسا	
١٣٢	الاستعمار الفرنسى في الجزائر العربية	
١٤٣	الاستعمار يواجه الإسلام في الجزائر	
١٥٥	مراجع الكتاب	







PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS



Princeton University Library



32101 074496066